9me Année No. 435

Lundi - 3 - 11 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٣٥ — « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ شوال سنة ١٣٦٠ — الموافق ٣ نوفبر سنة ١٩٤١ » — السنة التاسعة

الفهـــــرس

« مى »

للأستاذ عباس محمود العقاد

كنت يوماً بمكتب صحيفة « المحروسة » فلقيت وأنا خارج منه صاحبها الأستاذ الياس زيادة والد الآنسة « مى » رحمهما الله .

وكان من عادته إذا لقينى أن يخاطبنى باسم الأديب حسين فتوح ؛ وإذا لقى الأستاذ فتوحا خاطبه باسمى ومشى معه أو معى مسافة يصحح فيها الاسم ويتلطف بالاعتذار ويتناول بعض الأحاديث العامة ...

وجرى الحديث إلى مؤلفات الآنسة فقلت : إنها جديرة بأن تفخر بها . إنها أعظم كاتبة فى العربية

قال : ولك أن تقول : أعظم كاتب

يريد أن المفاضلة والتفضيل قد يجريان بينها وبين الكتاب ولا يقتصر على الكاتبات . فقلت مزكياً شهادته : ليس زهو الأب وحده بالذى يملى عليك هذه الشهادة . إن كثيرين غيرك ليسبقونك إليها

وكان الرجل على حق فى فخره وتقديره . فمثل الآنسة « مى » من يفخر بها الآباء وغير الآباء من أبناء العربية ، ومنزلتها فى الثقافة وخدمة الرأى منزلة فضلى بين الكتاب والكواتب ، وإن كنت قد أردت أنها أعظم كاتبات العربية جميعاً منذ عرفت

لغتنا الكاتبات ، ولم أرد أنها أعظم الكاتبات في عصرنا هذا دون غيره

وما تتحدث به تمتع كالذي تكتبه بعد روية وتحضير ، فقد وهبت ملكة الحديث في طلاوة ورشاقة وجلاء ، ووهبت ما هو أدل على القدرة من ملكة الحديث — ونعني به ملكة التوجيه وإدارة الأحاديث بين الجلساء المختلفين في الرأي والمزاج والمقام — فيكون في مجلسها عشرة : منهم الوزير والموظف الصغير ، ومنهم المحافظ والمغالي بالتجديد ، ومنهم المرح الثرثار والوقور المتزمت ؛ فإذا دار الحديث بينهم أخذ كل منهم حصته على سنة المساواة والكرامة ، وانفسح مجال القول لرأيه وللرأي الذي ينقضه ويشتد في نقضه ، وانتظم كل ذلك في رفق ومودة ولباقة ، ولم يشعر أحد بتوجيهها وهي تنقل الأحاديث من متكلم إلى متكلم ، ومن موضوع إلى موضوع ، كأنها تتوجه بغير موجه وتنتقل بغير ناقل ، وتلك غاية البراعة في هذا المقام

بقيت لها هذه الملكة في أشد أيام السقم والسآمة ، فلم يكن سامعها يحس فرقاً بين « مي » في إبان عافيتها و « مي » في ساعات الضنى والإعياء حين يستطرد الكلام إلى الأدب أو إلى التاريخ أو إلى معارض الآراء . ولم أسمع منها قط في معرض من هذه المعارض إلا ما هو خليق بالإصغاء والتدوين

وكانت لها فطنة للضحك تحيي الساجلة وتزين الحوار ، ولكن فطنتها للمواقف المضحكة كانت أدق من فطنتها للنكتة واشتراكاً كما فيها ، وكانت كبيرة الإعجاب بفكاهة المصريين التي تسميها « النفاشة » أو القافية التي لا تعذر ولا ترحم !

بحث بعض أساطين الشرقيين بعد الثورة الوطنية في توحيد الزي اللائم للبلاد الحارة ، وكان أحمد شفيق باشا صاحب الحوليات والمذكرات المشهورة رئيساً لجماعة الرابطة الشرقية وحريصاً على إشاعة الزي الموحد بين الأمم العربية وأمم الشرق الأدنى عامة ، ولفرط حرصه على هذا لم ينتظر إقناع الناس ولبس الزي الذي ارتضاه ثم مشى به في طرقات العاصمة إلى محطتها مؤثراً المشي على الركوب ليراه السابلة في تلك الطرقات الحافلة .

وكان يوم ثلاثاء ونحن في مجلس الآنسة مي والزوار كثيرون وأقبل بعض الفضلاء يبتسم كمن يغالب ضحكة جامحة

فسألته : مم الضحك ؟ فقال : كنت اللحظة أعبر بار اللواء فناداني أمين واصف بك وسألني : أرأيت شفيق باشا في زيه الجديد ؟ والله لقد حسبته مسجوناً مسوقاً إلى محطة العاصمة لتسفيره إلى اللمان ! !

هي تعرف شفيق باشا وتعرف أمين بك ، وتعرف أن الأول رئيس الثاني في جماعة الرابطة الشرقية ، ومع هذا لم يرحمه حين جاء في طريق القافية !

فلا أنسى كيف غلبت ضحكا لهذه المفارقة « المصرية » وهذا التشبيه الصائب ، واندفعنا جميعاً نضحك وهي تضحك حتى أغرورقت عيناها بالدموع ، وحتى قال الأستاذ مصطفى عبد الرازق بحيائه المعروف : ما بالنا أيها الإخوان نضحك هذا الضحك وننسى وقار المجلس ؟

فهتف به الأستاذ خليل مطران مداعباً : اضحك اضحك يا أخي ! من الذي يجد الضحك ويفرط فيه ؟

وكانت سهرة ضاحكة من سلامها إلى وداعها ، وكانت « مي » في تلك الليلة كأحسن ما كانت بشاشة وأنساً وغبطة وإقبالاً على الحديث والمساجرة . . . رحمها الله . ما رأيتها بعد ذلك في صورة آنس من تلك الصورة ، وتلك البشاشة كلها ، وذلك الذكاء كله الآن في التراب ، بعد سنوات مسحت فيها النضرة ، ورانت الغمة ، ونضب معين الأمل والغبطة ، وطال الألم والعذاب ! ألا ما أسخف الحياة !

* * *

لقد كان مصابها بأمها بعد أبيها في أشهر قلائل صدمة محطمة زلزلت كل ما بقي في جنانها من يقين وسلوى

لكنها كانت قبل ذلك قاسية على نفسها كثيرة الانطواء على دخيلتها . وكان يخيل إلى أن احترامها المفرط خصلة عميقة في سريرتها لازمتها من ريعان شبابها ، لأنها كانت قليلة الأمن والطمأنينة إلى الناس ، وكانت على دماثتها لا تدع الحواجز بينهم وبينها ، ولا تفتأ وراء سور من الحيطة والكتمان

وكنت أشفق من فرط احترامها وكلفتها ؛ فقلت لها يوماً

مجترئاً على مصارحتها : أنا على رأيك ياصديقتى فى أن الناس لا يؤمّنون ، ولكنى لست على رأيك فى نفع الحذر وجدوى الاحتراس . بل عندى أن عناء الاحتراس أضر من كل عناء يصيبنا به ترك الحذر وقلة المبالاة . فلا تبالى ولا تحترسى وانطلقى فى حياتك فذلك أخف الضررين

قالت : كأنك تعيد علىّ ما قاله الأستاذ داود بركات

قلت : وماذا قال ؟

فقصت علىّ حديثاً جرى بينهما فى السفينة وهما عائدان من أوربا ، وكانت فى السفينة سهرة راقصة والليل رائق والبحر ساج والطرب غالب على المسافرين . ورآها الأستاذ داود منزوية فى ركن من الأركان كأنها تأبى أن تشاركهم أو تشارك الطبيعة فى فرصة الصفاء . فناداها كالزاجر المندد : مابالك تمكثين على نفسك عكوف العجائز ؟ تعالى ارقصى واطربى مع هؤلاء الفتيات والفتيان فمنهم من هو أكبر منك وكلهم يسبقونك فى مجال السرور

قلت : وبماذا أجبته ؟

قالت : تضايقت منه !

ثم أومأت إلى معذرة باسمة وقالت وهى تقتضب الحديث : فإن أردت أن أتضايق منك فعد إلى نصيحتك ونصيحته ... وإياك أن تعود !

وكنا نتبادل الرأى كثيراً ونختلف كثيراً ولا نستغرب هذا الخلاف ولا نكف عن تبادل الآراء ؛ لأن الخلاف بين كل أنثى وفية لطبعها وكل رجل وفىّ لطبعه أمر من البداهة بمكان . فهى تنظر بعين حواء إلى حقائق الدنيا وهو ينظر بعين آدم ، وكلاهما مخلص فى خلافه ومستفيد

على أنها كانت ترى فى اللغة العربية واللهجة العامية مثل ما أراه ، وكانت على تربيتها الأوربية وإحاطتها بخمس لغات أجنبية تغار على عربيتها غيرة البداوة ، فلا تجارى الذين يميلون إلى مجافاة الفصحى وتبديل اللهجة والكتابة وتذهب فى هذا مذهباً قريباً من مذهب المحافظين المتشددين

واسمها « مى » إختصار لاسم « مارى » باختيار أول حروفه الميم وآخرها الياء ، ولكنها أحبت الاسم لعربيته لا لاختصاره ، فإن اسم مارى نفسه ليس بالاسم الطويل ولا الكثير الحروف

تذاكر الأدباء فى مجلسها يوماً مناقب رجل من أعظم رجالات المصريين فشاركتهم إعجابهم به وثناءهم عليه ، واستأذنت بعد ذلك أن تلومه أمامهم فى أمر صغير

قالت : كنت فى الجامعة المصرية فقدمنى إليه الأستاذ لطفى السيد وتفضل فأطرى كتاباتى العربية والأفرنجية بما شاء له فضله وتشجيعه

ثم قالت : فلا أدرى لماذا نسى الزعيم العظيم أننى عربية وأننى كاتبة عربية واختار أن يخاطبنى بالفرنسية ويصر على مخاطبتى بها مع إجابتى له بالعربية على كل سؤال

وبدا عليها حقاً أنها غضبت لعربيتها من أن يخاطبها مصرى عظيم بغير لغته ولغتها ، وهى هى التى تتقن خمس لغات وتكتب بكل لغة كتابة يرضاها القراء من أبنائها . ولقد تكون الواحدة من بناتنا وما تحسن لغة واحدة كلاماً فضلاً عن الكتابة ، ثم لا تزال ترطن بها فى البيت والطريق مع أبناء جنسها كأنها لا تفهم لغة غيرها

وواجب لى فى عنق العربية أن تغار على أديبها كثيرة مى على نسبتها إليها . فما عرفت العربية كاتبة أفضل من مى وأقدر وأجلى ، وليس فضل الندرة هنا بأقل من فضل الإحسان والإتقان .

حياها الله فى ذكراها

عباس محمود العقاد

١١ – أومن بالإنسان

للأستاذ عبد المنعم خلاف

آلة وحيوانات — عمل الطبيعة فى تكوين الانسان الواحد — أزهرت الأشجار وأدركت الثمار — مدنية خالدة ذات سلطان عجيب شامل — جئنا لنحيا لا لنموت — الحياة بالفكر فى المجاهل والمعامل — عبقرية المادة وعبقرية الروح — الذكاء البطر الجسوح — إلى أحضان الأمم الكبرى

إذا جردنا الإنسان مما أسبغته عليه الحياة المدنية من أفانينها وأنواعها وأشكالها ظهر لنا أن البون بعيد جداً بين الإنسان الذى أخرجته الطبيعة ، وهـذا الإنسان الذى غيرته الصناعة وتعقيد الفكر . وظهر لنا أن حياته الصناعية عالم مستقل منفصل خلقه هو . ولكنه عالم غير خالد ولا متوالد إلا باطراد تقدم الإنسان . بخلاف مخلوقات الله فى الطبيعة فإنها أبدية دائمة تعمر بها الطبيعة .

وكلما فكرت فى الفرق العظيم بين حياة رجل على الفطرة وبين حياة رجل ألمانى أو انجليزى أو أمريكى وعقدت موازنة بينهما فى المأكل والملبس والملهى والمركب والمعمل والإنتاج والفكر والإحاطة بآفاق الدنيا والتسلط على الطبيعة ظهر لى أن الأول يكاد يكون فى صفوف نوع آخر غير الإنسان ، وأن الثانى ينقصه الروح والعدل ليكون الإنسان المنشود البار بوصايا الله ؛ لأنه هو الذى أحسن الأخذ عنه وخلفه فى الماديات خلافة واسعة ونمت على يده الحياة وتنوعت وتشققت مجاريها وتوسعت . . .

ولا يجوز عقلا أو شرعاً أن يعطى الأول الحياة وعزتها ، وأن يتسلط على الثانى ما دام كل منهما على حالته . كما لا يجوز لحيوان أن يسخر إنساناً .

وكلما استعرضت معارف الإنسان المدنى المدونة فى كتبه وصحفه وألواحه وأرضه وآثاره أدركت مبلغ ما حمله من أمانات الحياة . وأسرار الدنيا ذات الصمت والعمل .

ولا شك أن الإنسان العادى الذى يقرأ صحيفة يومية يحمل ذهنه من قضايا العالم وأخباره فى الصباح والمساء ما لم يكن فى حسبان أحد من السابقين ووجدانه ...

ولا شك كذلك أن هذا كله قد ترك أثره الواسع الشامل فى تكوين الذهن الإنسانى الحالى وتكييف أعصابه وإحساسه بالحياة، غير ما كان عليه الناس فى زمن المواصلات والثقافات المحدودة .

إن الأقدار تصنع عقل الإنسان الحديث وقلبه صناعة تشترك فيها كل معارف الحياة العصرية

ومن الأعمال العظيمة التى تقوم بهـا الطبيعة الآن عملها فى تكوين الانسان الواحد الخاضع لمؤثرات واحدة . ونحن الذين يقع علينا تأثير أعمالها العظيمة ونعيش فى غيبوبة عن خطواتها بنا لا يدرك منا هـذا التأثير إلا الراصدون المسجلون الذين تجعلهم الأقدار مخصصين لرصد خطوات الحياة وتسجيل ظواهرها . وهؤلاء يكادون يكونون نادّين عن حبال الشبكة التى تلف غيرهم من أبناء الحياة .

لقد تركزت المعلومات فصارت القارات كالقرى .. وملايين الجنود كأصابع اليد . . . والدبابات كالنمال . . . والطائرات كالعصافير . . . وأخبار العالم الانسانى كله كأخبار الحى الواحد . . . !

وهكذا تتركز الحياة وتتلخص فى فكر الانسان وتختزل صورها العظيمة فى أرقام وحروف ...

***

هـذا العصر جدير أن يسمى « عصر الفوران والغليان » — على سبيل التشبيه بسطح ماء فى وعاء على نار — فقد لبث سطح الحياة ساكناً فى عصورها السالفة لا يتحرك إلا حركات موضعية . كما يلبث سطح الماء أول ما يوقد عليه فى النار . حتى إذا ما وصلت حرارته إلى درجة الغليان هدر وفار واشتد وقذف وتبخر وتحول ...

إن عوامل الحرارة كانت تحته من قديم ، ولكنها لم تصل منه إلى درجة الانضاج والحركة السريعة والتحويل إلا أخيراً . وكذلك عصر الانسانية الحالى هو عصر ظهور كوامن أسرارها وأسرار الطبيعة ظهوراً شديداً متلاحقاً .

وقد انكشفت حيوات جميع الناس للناس ؛ فعلموا أنواعهم ولغاتهم وأديانهم ومذاهبهم فى الحياة

وقد كانوا ضائعين مغمورين تائهين كأسرة مفرقة فرقها حادث ... ثم جمعتهم الظروف مرة ثانية ...

إنى أتخيل صورة الدنيا فى عقول ساكنيها الأولين ، وصورتها الآن فى عقول بنيها المثقفين ، فيصيبنى دهش مشوب بفرح وبهجة وشكر لله على تسديده الإنسان إلى غاية ابتدأت تنكشف وجوهها

وكان الأنبياء والحكماء القدماء وحدهم هم المدركين وجهات الحياة . وكانوا في الناس ما يكون البصير بين عميان ، والأب الكبير بين صبيان ، والراعي بين قطعان . وكان قليل من الناس هم الذين يدركون ما يشيرون إليه . ولكن الآن صار العلم والدين والإدراك الصحيح شيئاً مشاعاً كالهواء والماء ، تقاربت فيه المعتقدات والآراء

* * *

أجل ، هذا زمن حصاد جهود الإنسانية ؛ فقد أزهرت الأزهار وأدركت الثمار ، وظهر الحقل مستوى السوق مستغلظ الأعواد ، قد أينعت فيه عُلب الأسرار وحان قطافها ! !

أنظر في بقاع الأرض جميعها تجد إنسانية تفتح عيونها وتستيقظ من غفلاتها لتدرك الحياة الحديثة وتشترك فيها وتتلاقى مع غيرها في خدمتها . وقد زال الانبهام والغموض اللذان كانت تحسهما عقول الإنسانية القديمة والمتوسطة في ظواهر الحياة . وصار الإنسان معتمداً على نفسه وحسابها الدقيق وأخذها بأساليب الطبيعة في الإنتاج والاختراع ، وترك الاعتماد على الأماني ، فضاقت دائرة الاعتماد على الأقدار ...

ولنتلفت إلى الماضي كثيراً لندرك مدى ما كسبناه وحصلناه من محصولات الحياة كإنسانية واحدة وضع كل شعب وكل حضارة لبنة في بنائها ، حتى خرجت هذه الحضارة العالمية المشتركة التي اقتحمت كل قطر وكل مدينة في الأرض ، وصارت كقدر الله الذي لا مرد له ولا مفر منه

إنها حضارة باقية خالدة لن تبيد ولن تفنى ولن ترتد ! إذ أن بذورها ألقيت في كل مكان ونبتت فيه . فلئن ذهبت أوربا إلى الخراب والدمار لسوف تبقى أمريكا ... ولئن ذهبتا معاً لسوف يحمل الشعل أمم الشرق وتلك الأمم المنثورة في أرض الله وجزر المحيطات وغيرهم ممن اقتنعوا بأن هذه المدنية هي نبوة الطبيعة ذات المعجزات الدائمة التي لا مفر من الإيمان بها والعمل لها وأن هذا العصر هو أوان حصاد الغلال وجنى القطاف التي زرعها وتعهدها الأقدمون ، وزادت كل أمة في ميراثها حتى صار فيها من كل قطر وِردٌ ومن كل أمة مدد ورِفْدٌ

* * *

إن هذه مدنية فرضت نفسها فرضاً على الناس جميعاً . فرضت آلامها وشرورها كما فرضت إسعادها وخيراتها وعلومها ، وصار الناس لا يستطيعون منها فراراً بعد ما دخلت عليهم أقطارهم قسراً واقتداراً

هي قدر لازم لا فكاك منه كأنها الرياح والأمطار والأشعة ومما يؤكد أنها خالدة مؤبدة انتشارها في كل مكان وليست كالمدنيات السالفة الموضعية ذات العصبية القومية . لأنها قامت على العلم الذي لا تتناقض حقائقه بتعدد الأماكن والأجناس ، بل تتلاءم وتتوافق بتوافق قوانين الطبيعة الواحدة

وكانت المدنيات السابقة تجارب وجذوراً متشعبة لجذع عظيم هو هذه المدنية الحالية

ولم يحدث في الماضي أن صبغت مدنيةٌ الناسَ جميعاً كما فعلت هذه المدنية ، تخضع لها الموحد والوثني والملحد والمؤمن والزنجي والإسكيمي والشرقي والغربي

ولم يحدث أن وجدت ميادين كثيرة مشتركة بين الناس جميعاً كما وجدت ميادين النشاط العلمي والآلي والصناعي والسياسي والأدبي في رحاب هذه المدنية .

ولم يحدث أن اشتبكت مصالح الناس جميعاً كما اشتبكت الآن بفعل السرعة وسهولة الانتقال وتبادل المنافع وتشعب الاحتياجات

ولم يحدث أن درست ثقافة واحدة في مدارس الأمم جميعها كما درست هذه الثقافة العصرية .

فأي مكان نجا من سلطان مدنية الزمان ؟

أي طريق لم تجس خلاله السيارة ؟ وأي جو لم تخفق فيه الطيارة ؟ وأي بلد لم يستصبح بنور الكهرباء ؟

إن هذه المدنية تحيط بالإنسان في كل أفق من آفاق حياته . وإني استعرض الآن كل ما يحيط بي وأنا أكتب فأجد جميع ما تقع عليه عيني قد اشتركت فيه آلاف العمليات الإنسانية المعقدة . وقد صار إحساسي بها كإحساسي بضرورات حياتي . وأكاد لا أرى شيئاً خالصاً من يد الطبيعة وحدها إلا جسمي ... وحتى هو لم يسلم من هندسة الحلاق و « رتوشه » !

ويمكنك أن تجرد الأرض مما فعله الإنسان فيها وما عقده وركبه ، لتدرك مدى الحياة الأرضية من غيره ومدى العالم الذي أحدثه هو ... وإذا ألقيت نظرة على شارع في نيويورك أو لندن أو القاهرة فإنه يروعك أن ترى ما في مخازنه ومناظره وآثار الأيدي التي عملت فيه ، حتى لا تستطيع بعض الأذهان أن تتخيل الدنيا خالية منه من طول الأُلْفَة وطول الغفلة

عن التفكير فى مبادئ الحياة . . .

طوفوا فى شوارعكم أيها الناس بقلب ذاكر للطبيعة مدرك لمبادئها لتعرفوا مقدار ما بينكم وبينها ومقدار قوتكم الابتداعية فتتلفتوا لأنفسكم متعجبين محترمين محافظين عليها وعلى قواها الفكرية والانتاجية من الضياع والذهول والغفلات !

إن أفراح الحياة تنمر قلبى حين أطوف بجسمى فى الشوارع العظيمة ، أو حين تطوف بى الحياة فى دور السينما ، فأرى عجائب ما استحدثه الإنسان فى عوالم المواد والمعانى ...

ولست أزهد فى رؤية الحياة المادية وتقصى دقائقها ، لأن كل دقيقة منها ترسل فى قلبى دقيقة من التعجب والإيمان ...

ما جئنا للحياة لنموت ونستحضر فلسفة الموت من أول يوم ، والقبر ليس نهاية ، وإنما هو بداية مرحلة تالية ... فعلى الذين يجعلون القبور نصب أعينهم فيهوّنوا من أجلها كل عظيم ولو كان الصحة أو العلم أو التفاؤل ، أن يعلموا أنهم جاءوا ليحيوا ويحسوا الحياة عميقة فيما خلق الله من شىء ، وينتفعوا به انتفاع الحلال والعقل والحفظ ...

ومن الكفر أن نترك الأجسام فريسة للجراثيم الفاتكة والآفات وعوامل الشؤم انتظاراً للموت الأكبر .. فيذهب فيها منا ولادتنا ..

كذلك يجب أن يكون إيمان الرجل المتمدن ... إيمان البصير الواثق بأن عمل النفس البشرية فى المادة باب إلى الإيمان لا الكفر كما يتوهم الأغبياء البلداء الأغرار !

إنى لا أعيش فى نفسى وحدها ، ولكنى أعيش فى نفوس بنى الدنيا جميعاً ، لأرى الحياة بعيونهم من آفاقهم ، حتى أخرج ومعى كثير من أسرار الحياة فى القلوب والعقول ...

وأنصح لأصحاب الإيمان التقليدى أن يستحدثوا فى قلوبهم ونظراتهم ما أستحدث ، ليعرفوا أى لذة وأى إيمان مضاعف يغمر قلوبهم ...

وأنصح لأصحاب النظرة المادية والذهول عن المعانى ، أن يستحضروا أرواحهم وراء كل نظرة وكل عمل وكل علم ... فإن هذا هو الوضع الحقيقى لحياة الفكر والاستعمال الحق للروح وقوى الجسم ...

ولنعش بأفكارنا وأرواحنا دائماً ، سواء أكنا فى غابات خط الاستواء ، حيث الطبيعة بكر غير مفضوضة لم يطمثها إنس ولا جان ... أم فى مصانع « فورد » بنيويورك ، حيث يدور الفكر مع الحديد فى ضجة وتعقيد وقدرة !

* * *

الغربيون قدموا لنا عبقرية المادة ، فلنقدم لهم عبقرية الروح ... فلنخدم أرواحهم كما خدموا أجسامنا ... !

إنهم استغنوا بذكائهم عما وراء الطبيعة ، وقد كفاهم ذكاؤهم تدبير أمورهم كلها فيما يخيل إليهم مع أن الواقع أنهم فى شبكة الأقدار العليا والتدبير الشامل لحياة الأرض . والرجل الذكى غنى بالحيل وتجدد الأفكار . والغنى يبعث دائماً على الطغيان . ومن هنا أُتى الغربيون ودخلت عليهم نكبات الحياة لأنهم اعتمدوا على غنى ذكائهم وحده

وحين يستغنى الطفل بذكائه وقدرته عن ثدى أمه ورعايتها ، ويعلو مستواه البدنى والعقلى عن مستواها ، فذلك عهد ابتداء عقوقه إياها إذا لم يكن ذا ذخيرة موفورة من الإدراك والحب والرحمة والأدب ، وما دام ينسى أنه قطعة قدت من جسمها وقلبها ، وأنها الوشيجة الوثيقة بينه وبين أرومة الحياة والطبيعة

وكذلك ينسى الإنسان الذكى عجزه أمام قهر صاحب الطبيعة ويستغنى بذكائه عن الاستمداد منه والاستيحاء منها فيصير مخلوقاً يكاد يكون لا صلة بينه وبين ما فى الطبيعة من موجودات تسير طائعة بالإلهام والتوجيه

فهل نترك الغربيين يذهبون بأرواحنا وأرواحهم فى أودية بعيدة عن الرحمة والعدالة والأشواق إلى المجهول والبحث عن الله ذى الجلال ؟ !

أنتركها ونتركهم للحديد البليد القاسى يطبعها بطابعه ، ويوحى إليها ببأسه سياسة البطش والطغيان ، ويشغلها بضجته المنكرة عن همسات القلوب وأصوات الضمائر ؟

إننا إن تركناهم وتيمناهم على الخير والشر فسوف نكون فرائسهم وجَزَرَ سيوفهم وطحين طواحينهم الحديدية الحمراء !

فلنذكرهم بمبادئ الطبيعة أمّنا وأمّهم ، تلك المبادئ التى فيها من منطق الوجدان أكثر مما فيها من الذكاء الجامح وقوة الاختيار من غير ضابط من هدى الطبيعة

وإن الطبيعة لتذكر أبناءها دائماً بوصايا الحق والعدل كما تذكر الأم البسيطة أبناءها الأذكياء بوصاياها وعواطفها التى

بنت عليها عشها . فمهما اختلفت أفكار الناس وأخلاقهم فإنهم يتوحدون حين يقفون بين يدي الطبيعة ويشعرون بشعور واحد فيه صدق الفطرة واعتدالها

ومبادئُ الأمومة وجوُّها وبساطتها وعدم تكلفها، والحنينُ إليها والشوق إلى مهدها يجب ألا تنسى؛ لكي يعيش الإنسان باراً بريئاً عامر القلب بالعواطف الشريفة ذات التأثير الكريم في خدمة الحياة!

وكما يوصف الرجل الذي يهجر أمه بالعقوق واللؤم مهما كانت هي بسيطة جاهلة، ومهما كان هو فائق العقل واسع العلم عريض الجاه، كذلك يوصف الرجل بالعقوق حين يهجر أحضان الأم الكبرى الطبيعية، أو حين يؤذي أو يهمل إخوته منها!

عبد المنعم محمد طهوف

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

« الأخلاق عند الغزالي »

للدكتور زكي مبارك

تمهيد — الكتاب والمؤلف — اليوم المشهود — انتقال القلب من مكان إلى مكان — الروح السائد في الكتاب — العناصر الرئيسية — الكفر والإيمان — كلمة تنفع شبان الجيل الجديد ...

تمهيد:

أنا أشعر بأن مقال اليوم لن يخلو من ضعف، لأني أكتبه وأنا كاره، والإجادة لا تتاح إلا لمن يكتب بشغف وشوق، وإنما أقبل كارهاً على مقال اليوم لأنه متصل بأحد مؤلفاتي، وأنا لا أحسن وصف هذه المؤلفات إلا في المواقف التي تمدّ النفس بموجبات الزهو والخيلاء، ولا شيء من ذلك في هذا الوقت، لأن فورة الهجوم على كتاب «الأخلاق عند الغزالي» قد خمدت منذ أعوام، بعد أن شغلتُ الناس وشغلوني بأبحاث بعيدة عن موضوع هذا الكتاب

ولكن، ما الذي يدعو إلى هذا المقال وحالي كما وصفتُ؟

يدعو إليه أن الكتاب مقرر لمسابقة الأدب العربي، ولا بدّ من معاونة طلبة السنة التوجيهية على إدراك بعض ما فيه من مقاصد وأغراض، على نحو ما صنعتُ في السنة الماضية، وعلى نحو ما سأصنع في السنة الحاضرة، في درس الكتب المقررة للمسابقة بين أولئك الطلاب

ولو أنني وجدت من ينوب عني في الكلام عن كتابي، لأعفيت نفسي من هذا الواجب المزعج، فلم يبق إلا أن أتكلم عن كتابي كما أتكلم عن كتب الناس ... وهل في الدنيا شريعة تفرض عليّ أن أنصف الناس وأظلم نفسي؟

وليكن مفهوماً أني سأنظر إلى كتابي بعين الحب، فحسبي وحسبُه ما عانينا من الظلم والاضطهاد. ألم يرفض جماعة من علماء العراق مصافحتي بحجة أني آذيت الغزالي؟ ألم يَقُل جماعة من علماء مصر بأني وجهت أقوال الغزالي إلى غير ما كان يريد؟ ألم يقترح الأستاذ جاد المولى بك أن يُنصّ في محضر الامتحان على أن اللجنة غير مسئولة عما في الكتاب من آراء، وإنما مُنح مؤلفه إجازة الدكتوراه جزاء ما بذل من الاجتهاد في استنباط تلك الآراء؟

لن أذكر كتابي بغير الجميل، وإن كنت أعلم الناس بما فيه من عيوب هي في نظري من غرائب الجمال. وهل يعاب عليه غير أقباس من الحيوية لا ينجو منها شابٌ كالذي كنتُ في سنة ١٩٢٤؟

رُدوني إلى ما كنت عليه من شراسة وحُمق في ذلك العهد، وخذوا ما أملك من ثروة وصيت، فيومٌ واحد من شبابي أطيب وأنضر من جميع أطايب الوجود

الكتاب والمؤلف:

يقع هذا الكتاب في أكثر من أربعمائة صفحة بالقِطع المتوسط، وثمنه خمسة عشر قرشاً، أما النسخة المجلدة فتباع بعشرين، فأرجو المكتبة التجارية أن تراعي هذا السعر، فلا ترهق التلاميذ، لأن أكثرهم أفقر مني

وقد قُدّم هذا الكتاب لنيل الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصرية سنة ١٩٢٤، وكانت لجنة الامتحان مؤلفة من حضرات الأساتذة الأكابر: منصور فهمي، وأحمد ضيف، ومحمد جاد المولى، وعبد الوهاب النجار، وأحمد عبده خير الدين؛ وقد انتقل النجار وخير الدين إلى جوار الله، فإلى روحَيهما في دار الخلود أقدّم أصدق التحية وأطيب الثناء

واسم المؤلف محمد زكى عبد السلام مبارك ، وكان فيما سمعت شابًا يحاول الوصول إلى الحق ، وطريق الحق كثير الأشواك والعقبات : فلم يصل إلا بعد أن أدمى قدميه ، إن صحّ أن الله أراد أن يكون من الواصلين

ويظهر أن المؤلف كان يعانى ثورة روحية وعقلية عند تأليف هذا الكتاب ، وهو نفسه حدثنى أنه صاحبَ الغزالى فى مؤلفاته نحو خمس سنين ، فأسرَه الغزالى على نحو ما يصنع بمن يواجهون نوره الوهاج ، ورأى المؤلف أن تأليف كتاب فى « الأخلاق عند الغزالى » لا يتيسر إلا بعد النجاة من أسر الغزالى ، فجمع قواه وكسر باب الأسر ، ليتنسم أرواح الحرية الفكرية ، وليلقى الغزالى لقاء النِّد للنِّد ، إن كان للغزالى أنداد

وفى مدى ثلاث سنين استطاع ذلك الشاب أن يكتب رسالة للدكتوراه فى الفلسفة عن « الأخلاق عند الغزالى » ، وهى رسالة شرّقت وغرّبت ، بحق أو بغير حق ، واهتم بها الدكتور سنوك هوجرنيه ، فنشر فى الثناء عليها بحثاً بالمجلة الهولندية كان طليعة التنويه بالمؤلف فى بيئات المستشرقين

اليوم المشهود

هو اليوم الذى نوقش فيه المؤلف بجلسة علنية فى الجامعة المصرية ، فقد كان بين الحاضرين جماعة من أساتذة الأزهر الشريف ، على رأسهم الأستاذ الجليل عبد المجيد اللبان شيخنا وشيخ أشياخنا وصاحب الفضل على كثير من العلماء ، وقد طاب للشيخ اللبان فى ذلك اليوم أن يعترض من وقت إلى وقت بأسلوب يُحرج الممتحَن ويحرج لجنة الامتحان ، واقتفى أثره المرحوم الشيخ محمد الإبيارى فاعترض بعبارات حملت الدكتور منصور فهمى على أن يعلن أن الجمهور لا يصح له التدخل فى شؤون هى من حق لجنة الامتحان

وانتقلت الثورة من الجمهور إلى أساتذة الجامعة من غير لجنة الامتحان ، فتقدم معالى الأستاذ حلمى باشا عيسى وأسر فى أذن الدكتور منصور فهمى أن الدكتور طه حسين يريد أن يوجه ثلاثة أسئلة إلى زكى مبارك ، فأعلن الدكتور منصور أن لأساتذة الجامعة وحدهم أن يتدخلوا فى الامتحان ، وهو لذلك يعطى الكلمة للدكتور طه حسين ... والله الحفيظ !

وكانت معركة لم أنتصر فيها إلا بأعجوبة ، فقد كان الدكتور طه هزمنى قبل ذلك فى امتحانات الليسانس مرتين !

ثم كانت النتيجة أن يفوز الطالب بعد امتحان دام نحو ثلاث ساعات فيصير دكتوراً فى الآداب بدرجة « جيد جداً » من الجامعة المصرية .

انتقال القلب من مكان إلى مكان

ورأى الأستاذ خليل بك ثابت أن يرسل مندوباً يشهد الامتحان ويحدث قراء المقطم عما وقع فيه من جدال وصيال ، وقد وقع اختياره على المرحوم حسن حسين ، وكان أديباً له بَدَوات ، فلخص معركة الامتحان بأسلوب صورنى فيه بصورة الثائر على التقاليد الدينية ، فانبرى لمجادلتى على صفحات المقطم عالمان جليلان ، أحدهما الشيخ أحمد مكى ، طيب الله ثراه ، وثانيهما أستاذى فى أكثر ما تلقيت من العلوم الدينية وهو الشيخ يوسف الدجوى ، ولم أستطع الرد على هذين الأستاذين الجليلين — وكان يشرفنى أن أجاريهما فى ميدان النضال — لأنى علمت من إدارة الجامعة عن طريق الأستاذ سامى راغب أن مساعد السكرتير العام بوزارة المعارف وهو الأستاذ محمود فهمى النقراشى طلب من الأستاذين جاد المولى وخير الدين أن يقدما تقريراً عن امتحان زكى مبارك فى الدكتوراه ، ولأن الدكتور طه والدكتور منصور نصحانى بالسكوت عما أثار امتحانى من جدال ، وهى نصيحة سجلها الدكتور طه فى جريدة السياسة وهو ينقد كتاب « مدامع العشاق » فى أوائل سنة ١٩٢٥

وأقول إن قلبى انتقل من مكان إلى مكان بسبب هجوم الشيخ أحمد مكى والشيخ يوسف الدجوى ، فما كنت أنتظر من هذين الأستاذين أن يثيرا عجاجة يهتاج بها الجمهور ، وتلتفت إليها وزارة المعارف

ولم يصح عندى أن هجوم الشيخ مكى والشيخ الدجوى يستند إلى الحق ، فأسررتها فى نفسى ، وقلت إن رجال الدين لن يكونوا دائماً ملهَمين ، وذلك هو السبب فى أنى أجازيهم ظلماً بظلم وإجحافاً بإجحاف ، من حين إلى حين

ولكن لا بأس ، فقد استطاع كتاب « الأخلاق عند الغزالى » أن يقاوم هجمات الناقدين عدداً من السنين إلى أن تعرض له ناقد لا يرحم المؤلف ، وإن كان يحمل اسم المؤلف ، ففى اليوم الرابع من

أبريل سنة ١٩٣٧ وقف طالب يؤدي امتحان الدكتوراه في جلسة علنية بالجامعة المصرية . وكان أكبر همه أن ينقض آراء الطالب الذي وقف هذه الوقفة في الخامس عشر من مايو سنة ١٩٢٤

فماذا صنع ؟ أثبت في كتاب « التصوف الإسلامي » أنه ظلم الغزالي في كتاب « الأخلاق عند الغزالي » والحكم على النفس من مظاهر القدرة على مغالبة الأهواء

روح الكتاب

وقد حاولت مرات كثيرة أن أرجع إلى هذا الكتاب بالتغيير والتبديل لأقدمه بصورة جديدة إلى عشاق الدراسات الأخلاقية ، ولكنه يأسرني كلما نظرت فيه ، لأني ألفته في أوقات كنت فيها ثائر القلب والعقل على فهم القدماء للأخلاق ، وهي ثورة لم أنج من شرها إلى اليوم ، وقد أسايرها وتسايرني إلى آخر أيامي . وكيف يهدأ من يروعه أن يرى في رجال الدين من يعرفون خريطة الحياة الأخروية ويجهلون خريطة الحياة الدنيوية ؟

إن كتاب « الأخلاق عند الغزالي » لم يكن إلا دعوة صريحة إلى التشكيك في أصول الأخلاق الموروثة عن القدماء ، والمؤلف يقسم الفضائل إلى قسمين : فضائل سلبية وفضائل إيجابية ، ثم يقرر أن الغزالي وجه أكثر اهتمامه إلى الفضائل السلبية « ولم يُعنَ بشرح الفضائل الإيجابية كالشجاعة والإقدام والحرص وما إلى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما عنده ، والسعي لنيل ما لا يجد ، فإنه لا يكفي أن يسلم الرجل من الآفات النفسية ، بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة . وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف ، فإن الضعف شر كله ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون »(١)

وقد عاب المؤلف على رجال الدين أن ينسحبوا من الميدان السياسي في الأوقات التي يُفرَض فيها الجهاد ، فطوق الغزالي بطوق من حديد حين سجل عليه أنه لم يؤد واجبه في التحريض على مقاومة الحملات الصليبية ، مع أنه « حجة الإسلام » ومع أن صوته كان مسموعاً في أكثر الأقطار الإسلامية

وأثبت المؤلف في لواحق الكتاب مقالاً نشره في المقطم بتاريخ ٤ يونية سنة ١٩٣٤ أيد فيه القول بأن الدين الإسلامي دين فتح وامتلاك ، وهو مقال كتبه في الرد على من ناوشوه من العلماء وفيه يقول :

(١) الأخلاق عند الغزالي ص ١٨٥

« الظاهر أن حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريبَ والاعتداء على الشعوب . كلا ، ياهؤلاء ! الدين الإسلامي دين فتح ، رضيتم أم كرهتم ، وللفتح آداب وشروط سنها الدين الحنيف ، وأنتم حين تنفرون من كلمة « الفتح » إنما تجارون الأجانب الذين يتوددون إليكم بوصف الإسلام بالقناعة والرضا بالقليل ، وهذا خطأ صُراح ، فالدين الإسلامي أبعد الأديان عن الزهادة وأبغضها للخمول ، ولا حرج على الإسلام في أن يرغب أتباعه في امتلاك ناصية العالم ، فإن هذا أمل نبيل ، ولم يحدثنا التاريخ عن أمة قوية أو ملة قوية وضعت حداً لمطامعها في الحياة ، وإنما ترغم الأمم الضعيفة أو الملل الضعيفة على أن تحدد آمالها وأطماعها بضيِّق الحدود »(١)

وهذه الفقرة توضح بعض اتجاهات المؤلف في تفسير الأغراض الصحيحة للدين الإسلامي

وأنكر المؤلف على الغزالي أن يتعلق بأهداب الآداب السلبية التي دعا إليها الإنجيل ، وفي ذلك يقول :

« إن الآداب التي وضعها الإنجيل غير طبيعية ، على معنى أنه لا يمكن أن يسكن إليها بطبيعته أحدٌ من الناس ، فالحكمة الإنجيلية التي تقول : (مَن ضربك على خدك الأيمن فأدِرْ له خدك الأيسر) حكمة غير معقولة لا يقرّها عُرف ولا يدعو إليها قانون ... والحكمة المسيحية التي تقول : (من سخّرك ميلاً فامش معه ميلين) حكمة غير ممكنة القبول ، ومن المستحيل أن تجد مسيحيًّا يدير لك خدك الأيسر حين تضربه على خده الأيمن ، أما المسيحيّ الذي يتبعك ميلين حين تسخره ميلاً فهو نادر الوجود »(٢)

ثم يقول المؤلف بعد كلام مفصّل في نقد الأخلاق المسيحية :

« أليس من الغريب أن يصدّق الغزالي أن عيسى يقول : (من أخذ رداءك فأعطه إزارك) وَمن الذي يرضى من المسلمين أو النصارى أن يتأدب بهذا الأدب الغريب ؟ »

وينفي المؤلف عن نفسه تهمة التحامل على المسيح فيقول :

« ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نُبوة عيسى عليه السلام ، وإنما نرجح أن أتباعه جنَوا على شريعته بما زوّروا باسمه من الأحاديث ، وهذه جناية كثيرة الأمثال في تواريخ الشرائع ، فإن الإسلام مع تواتر سنده الأول وهو القرآن لم يَعدم من

(١) الأخلاق عند الغزالي ص ٤٢١

(٢) أنظر ص ٩٠

أصحاب الغفلة وأصحاب الأغراض من زوروا الأحاديث بإسم النبيّ حتى كادوا يقضون على ما للاسلام من قوة الحق وروعة الجمال ... ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو إلى الزهد، ولكننا نرجح أنها كانت تدعو إلى الزهد بقدر ما تفلّ من حدّة الناس وتقلل من جشعهم وطمعهم، أما الدعوة إلى الفرار من طيبات ما أحلّ الله فهى دعوة بعيدة الوقوع من الأنبياء والمرسلين»[(١)]

هذا الروح السائد فى كتاب «الأخلاق عند الغزالى» هو الذى يعطفنى عليه، ويصرفنى عن التعرض له بالحذف والإيصال، مع أنى رجعت عن بعض الآراء المدونة فيه حين ألفت كتاب «التصوف الإسلامى»، وبين الكتابين أعوام تنقّل فيها عقلى من أفق إلى آفاق

والمهمّ هو أن ينظر طلبة السنة التوجيهية إلى المعضلات المبثوثة فى هذا الكتاب بالعين التى نظر بها المؤلف، ولهم أن يثوروا على المؤلف كما ثار على نفسه فى كتاب «التصوف الإسلامى» إن اتسع وقتهم للبحث والاستقصاء

وأهم من هذا أن يتحنوا ما فى هذين الكتابين من آراء فلسفية، ليُشعروا لجنة الامتحان بأنهم انتقلوا من الدرس والاستيعاب إلى النقد والتحقيق، وليس هذا بكثير على شبان هم باذن الله طلائع الجيل الجديد

العناصر الرئيسية

فى كتاب «الأخلاق عند الغزالى» أربعة عشر باباً، وفى كل باب عدة فصول، ومن مواد هذا الكتاب تتضح ألوان كثيرة من التفكير الفلسفى عند العقول الإسلامية، وتظهر عبقرية الغزالى فى نضارة وإشراق

وأسلوب الكتاب يغلب عليه الحذر والتهيّب، وقد يصل إلى الرمز والإيماء، لأن المؤلف كان يعانى رقابة عنيفة، هى رقابة اللجنة المكلفة بالنظر فى صلاحيته لامتحان الدكتوراه، وإن كان من واجب المؤلف نحو نفسه أن يعلن أن تلك اللجنة لم تحذف منه غير فقرتين اثنتين، ولم تُشر بغير زيادة كلمات معدودة تحدّد المراد من بعض الأغراض

وكان شاع منذ أعوام أن كتاب «الأخلاق عند الغزالى» من تأليف الدكتور منصور فهمى، وهى إشاعة تشرّفنى وترفع من قدرى، فأنا تلميذ هذا المفكر الجليل، ولو قضيتُ العمر فى الثناء عليه لما وفيته بعض حقه فى تعليمى وتثقيفى؛ ولكن كتاب «الأخلاق عند الغزالى» كتابى لا كتابه، بشهادة ما فيه من غطرسة واستعلاء، وأستاذنا الدكتور منصور آية فى التواضع المقبول

وكان يجب أن ألخص ما فى الكتاب من أبواب وفصول ليسهُل درسه على المتسابقين، ولكنى نظرت فرأيته فى غاية من الوضوح والجلاء، فلم يبق إلا أن أنص على ما يجب درسه بعناية والتفات:

فى الباب الأول فصول تصوّر عصر الغزالى بإيجاز وتصف المدائن التى عرفها الغزالى، وسيُسأل الطلبة عن محتويات هذا الباب

وفى الباب الثانى فصول عن أسرة الغزالى ومولده ونشأته وحياته الروحية، ومبلغ فهمه للحياة، وسيُسأل الطلبة عما حصّلوه من عناصر هذا الباب

والباب الثالث متعب، لأنه خاص بالينابيع التى استقى منها الغزالى آراءه الفلسفية، ولا بد للطلبة من مذاكرة أساتذتهم فى الاهتداء إلى تلك الينابيع

وفى الأبواب التالية يكون الكلام فى صميم المبادئ الأخلاقية بنظرتين مختلفتين: نظرة الغزالى ونظرة المؤلف، ومن واجب الطلبة أن يتحنوا هاتين النظرتين بفهم وذوق، ليقيموا الدليل على ما يملكون من أصالة الفكر ورجاحة العقل

فإذا كان الباب التاسع رأينا المؤلف يحاسب الغزالى على آرائه فى العلوم والفنون وفى التربية والتعليم، وهو باب سيُسأل الطلبة عما فيه من آراء، لأنه وثيق الصلة بالموازنة بين العقل القديم والعقل الجديد

وفى الباب العاشر يتكلم المؤلف عن الواجبات الفردية والاجتماعية، ويقع هذا الباب فى أكثر من خمسين صفحة، ويكفى الطالبَ أن يدرس منه عشر صفحات، ليواجه لجنة الامتحان وهو على شىء من التحصيل

وفى الباب الحادى عشر يطول الكلام عن تأثير الغزالى فى عصره وما تلاه من العصور، وللطالب أن يقرأ من هذا الباب

---

(١) أنظر ص ٩٣

ما يشاء ، ولكن عليه أن يدرس الصفحتين ٣٦١ و ٣٦٢

وفى الباب الثانى عشر كلامٌ عن أنصار الغزالى وخصومه ، وهو موضع اعتراض ، فقد قيل إن المؤلف أوجز فى الكلام عن أنصار الغزالى مع أنه تحدث عن خصومه بإطناب ، فعليك أن تعتذر عن المؤلف بلطف ! !

أما الباب الثالث عشر فهو فى الموازنة بين الغزالى والفلاسفة المحدَثين ، وفيه فصلٌ مهمٌ جداً عن الموازنة بين الغزالى وديكارت وإن تعفيك لجنة الامتحان من هذا الفصل ، لأنه من عيون الكتاب ، ولأن التأمل فيه قد يجذبك إلى الدراسات الفلسفية

وفى الباب الرابع عشر تجد (آراء علماء العصر فى الغزالى) من أمثال الأساتذة : منصور فهمى ، على عبد الرازق ، يوسف الدجوى ، محمد جاد المولى ، عبد العزيز جاويش ، الكونت دى جالارزا ، على العنانى ، عبد الوهاب النجار ، حسين والى ، عبد الباقى سرور ، أحمد أمين

فإن استطعت أن تقرأ الكتاب كله قراءة الفهم أولاً ، وقراءة النقد ثانياً ، فستظفر بالجائزة الأولى ، وسيصافحك وزير المعارف مصافحة الود والإعجاب

الكفر والإيمان

فى الموازنة بين الغزالى وكارليل تقع صحائف أراها من النفائس ، وقد تكون أصدق ما جرى به قلمى ، وهى من صفحة ٣٨٩ إلى صفحة ٣٩٩ ، ولا أستطيع تلخيص تلك الصفحات فى هذا المجال ، طلباً للنجاة من الدخول فى معارك نفضت من غبارها يدى ، فقد راضتنى الأيام بعد الجموح ، وانضممت كارهاً إلى العصابة التى تقول بأن الرياء سيد الأخلاق !

هذه الصفحات تنفعك فى الامتحان ، لأنها تشهد بأنك وصلت إلى الأسرار المطوية فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » وذلك هو الغرض المنشود ، ولكنها ستغضبك وستؤذيك ، لأنها ستفرض عليك أن تزن « المسئولية الأخلاقية » بميزان جديد وأنت فى غنًى عن هذه المتاعب الثقال !

كلمة تنفع شباب الجيل الجديد

قد يكون فيكم من يتوهم أن اللجنة التى تحتكمون إليها فى مسابقة الأدب العربى يسرها أن تراكم أبواقاً تحكى ضلالات المجتمع فى فهم الأدب والأخلاق ، هيهات ثم هيهات ، فستؤلف تلك اللجنة من رجال وزارة المعارف ورجال كلية الآداب ، فأفهموهم بلسان الحال ولسان المقال أنكم طلائع الجيل الجديد ، وأنكم جديرون بما لهم فيكم من آمال

وبالنيابة عن اللجنة أوصيكم بدرس ما يطيب لكم من مواد الكتب المقررة للامتحان الشفوى ، على شرط أن تعلنوا اللجنة بذلك ، وعلى شرط أن يكون لكم فى التعقيب على المؤلفين آراء تجعلكم من أرباب الفكر الأصيل

ليس المهم أن تقرأوا الكتاب من الألف إلى الياء ، ولكن المهم أن تدركوا سريرة المؤلف ، وأن تحاسبوه بنزاهة وإخلاص

أنتم فى السنة التوجيهية إلى كليات الجامعة المصرية فأفهموا لجنة الامتحان أنكم انتقلتم من التحصيل إلى التفكير ، فالتفكير هو الغرض المنشود

وسنتكلم فى الأسبوع المقبل عن « ابراهيم الكاتب » ؛ فإلى اللقاء

زكى مبارك

كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

- ٦ -

نقد الأصول

تعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان ومكان التدوين (*)

إذا ما ثبت للباحث أن الأصل أو المصدر التاريخي صحيح وغير مزيف فليس معنى ذلك أن المعلومات الواردة به ذات قيمة تاريخية كبيرة. ولا بد من نقد الأصل التاريخي من نواح أخرى. وبعض الأصول تحمل اسم مؤلفها وزمان ومكان تدوينها، والبعض الآخر الذي يكون عليه طابع الصحة وعدم التزييف يغفل بعض أو كل هذه النواحي، فينقص ذلك من قيمتها التاريخية. فكيف يقدر الباحث قيمة الأصل التاريخي وهو يجهل اسم المؤلف وشخصيته وعلاقته بالحوادث التي كتب عنها؟ هل شهدها بنفسه أم سمعها ونقلها عن الغير؟ ومتى دونها؟ هل دونها أثناء وقوع الحوادث أم بعدها بزمن طويل؟ وفي أي مكان تم ذلك التدوين؟ هل كان في مكان وقوع الحوادث أم في جهة بعيدة عنها؟ من الضروري جداً معرفة كل هذه النواحي بقدر المستطاع. فكيف السبيل إلى تحقيق كل ذلك؟

إن معرفة اسم وشخصية كاتب الأصل التاريخي مسألة هامة لأن قيمة المعلومات التاريخية التي يوردها ترتبط كل الارتباط بشخصية الكاتب وبمدى فهمه للحوادث وبكل الظروف التي تحيط به على وجه العموم. فالمعلومات التي يدونها الأمير أو الحاكم تختلف عن المعلومات التي يسطرها السياسي أو صاحب المهنة أو الجندي أو رجل الشعب. وكاتب الأصل التاريخي، سواء كان شاهد عيان أو اعتمد على غيره من شهود العيان، يعتبر الواسطة التي يصل المؤرخ عن طريقها إلى الوقائع التاريخية. فإذا كان الكاتب شخصاً صادقاً عدلاً بعيداً عن الأهواء بقدر المستطاع كانت معلوماته صحيحة بصفة عامة، والعكس صحيح أيضاً. وعلى ذلك تتضح أهمية البحث لمعرفة أكبر قسط ممكن من المعلومات عن كاتب الاصل أو الوثيقة التاريخية. وفي هذه الناحية كغيرها من نواحي نقد الأصول التاريخية الأخرى، يصبح عمل المؤرخ شبيهاً بعمل القاضي، والقاضي يمتاز بأن شهود الحوادث أحياء أمامه بالحق أو بالكذب ينطقون، ولكن المؤرخ عليه أن ينتقل من الحاضر إلى الماضي بالعقل والنقد والخيال، وأحياناً تضيع عبثاً جهود المؤرخ لمعرفة اسم وشخصية كاتب الأصل التاريخي فيظل مجهولاً، وأحياناً أخرى لا يمكن للمؤرخ إلا أن يجمع بعض المعلومات القليلة عنه. ونلاحظ أن وضع اسم شخص على أصل أو مصدر تاريخي لا يفيد دائماً أنه كاتبه كما فهمنا ذلك من عوامل الدس والانتحال. وإذا عثر الباحث على الأصل التاريخي المخطوط أمكن في أحوال كثيرة التعرف على شخص الكاتب أو الاقتراب منه على الأقل، بدراسة الخط ونوع الورق والحبر واللغة والأسلوب والمصطلحات الخاصة بعهد تاريخي معين وبدراسة المعلومات التاريخية الواردة به

وإنه ليختلط الأمر أحياناً على الباحث في التاريخ فيخطئ في نسبة الأصل التاريخي إلى كاتبه الحقيقي. ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الأب بولس قرالي أنه عند حضور علي باشا أمير البحر التركي إلى المياه السورية لفض النزاع القائم بين فخر الدين أمير لبنان ويوسف سيفا صاحب طرابلس في يوليو سنة ١٦١٩، أرسل الأمير فخر الدين رسالة إلى الباشا التركي يعتذر فيها عن الحضور إليه بنفسه[١]. ويقول الأب قرالي أن الأستاذ اسكندر المعلوف قد أورد ترجمة هذه الرسالة باللغة العربية في كتابه عن الأمير فخر الدين. والأستاذ المعلوف يعتبر أن هذه الرسالة قد صدرت من فخر الدين ولكنه يتشكك في تاريخ إصدارها ولا يمكنه أن يحدد ذلك[٢] ويذكر الأستاذ المعلوف أنه قد نقلها عن ريكو[٣].

(*) يعبر الأستاذ فلنج عن هذه المرحلة من النقد بكلمة Localization ص ٦١، ولم أجد كلمة عربية واحدة تفيد هذا المعنى. فلعل بعض العارفين يمدنا بما عنده.

(١) Carali, P. : Fakhr ad Din II Principe del Libano e la Corte di Toscana (1605—1635). Roma, Roma, 1936. p. 99.

(٢) عيسى اسكندر المعلوف : تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثاني. جونية، لبنان، ١٩٣٤. ص ٣٨٥.

(٣) Knolles & Rycaut : The Turkish History from the Original of that Nation to the GroWth of the Otfoman Empire. 3 vols. London, 1687. v. I. p. 693.

والواقع أن هذه الرسالة ليست لفخر الدين . والمؤلفان كنولس وريكو قد أخذا معلوماتهما عن هذه الفترة عن كتاب مينادوى الرحالة الإيطالى المعاصر الذى زار سوريا ولبنان أثناء حملة إبرهيم باشا لإخضاع الدروز فى ١٥٨٥ . ومينادوى يورد نص هذه الرسالة باللغة الإيطالية ، ويقول إن ابن معن قد أرسلها إلى إبرهيم باشا فى يوليو ١٥٨٥ . ولقد نقل كنولس هذه الرسالة عن مينادوى إلى اللغة الإنجليزية . ولا يحدد مينادوى ولا كنولس (وريكو) من هو المقصود بابن معن . على أنه لا يمكن أن يقصد بابن معن فى ذلك المقام الأمير فخر الدين ، لأنه كان إذ ذاك غلاماً صغيراً ؛ والمقصود بابن معن ، هو قرقماز بن معن والد فخر الدين ، وليس فخر الدين نفسه . والذى حاول إبرهيم باشا أن يحمله للقدوم عليه للغدر به . وبالبديهة لا يمكن أن تكون هذه الرسالة قد صدرت عن الأمير فخر الدين إلى الباشا التركى فى ١٦١٩ ، لأن كتاب مينادوى الذى يتضمن أقدم نص معروف عن هذه الرسالة قد طبع فى البندقية فى ١٥٩٤ (١)

ومن الأمثلة التى توضح طريقة إثبات شخصية كاتب الأصل التاريخى أن الباحث فى التاريخ قد يجد خطاباً باللغة الإيطالية مدوناً فى باريس بتاريخ ٢٩ يونيو ١٧٨٩ وموجهاً إلى حكومة على رأسها مجلس شيوخ ، ولكن بدون تحديد تلك الحكومة وبدون تعيين الكاتب . وفحص هذا الكتاب يدل على أن كاتبه هو أحد السفراء الإيطاليين فى فرنسا . فمن هو ذلك السفير ؟ وإلى أية حكومة أرسل خطابه ؟ الحكومة الإيطالية الوحيدة التى كان على رأسها مجلس شيوخ فى ١٧٨٩ هى جورية البندقية . فالخطاب إذاً قد كتبه سفير البندقية فى فرنسا إلى حكومته . فمن هو ؟ البحث فى سجلات أرشيف البندقية يدل على أن سفير البندقية فى باريس فى ذلك العهد كان أنتونيو كابللو (٢)

وقد يحتوى الأصل التاريخى على معلومات عن حوادث رآها شاهد العيان بنفسه أو على معلومات سمع بها ونقلها عن الغير . فينبغى أن يحدد الباحث على وجه الدقة أجزاء الأصل التى دونها الكاتب بناء على ما شهده بنفسه ، وتعتبر إذاً أصلاً من الطبقة الأولى ، وكذلك يحدد أجزاء الأصل التى اعتمد الكاتب فى تسجيلها على الغير ، وتعتبر أصلاً من الطبقة الثانية ، مع تحديد مصدر هذا النوع الأخير من المعلومات إذا أمكن ذلك . ومن الأمثلة التى توضح ذلك ما ذكره (كاميل ديمولان) فى بعض ما كتبه عن المشادة التى حدثت بين مندوب الملك لويس السادس عشر وبين ميرابو أثناء اجتماع مجلس طبقات الأمة فى ٢٣ يونيو سنة ١٧٨٩ . والباحث يعرف من التاريخ أن ذلك الاجتماع لم يكن حضوره مباحاً للجمهور ، وكاميل ديمولان لم يكن عضواً فى مجلس طبقات الأمة ؛ وعلى ذلك فإن ديمولان لم يسمع بنفسه ما قاله ميرابو لمندوب الملك . فكلامه عن هذه المشادة أخذه عن طريق السماع ، فيعتبر أصلاً من الطبقة الثانية . إنما وصف ديمولان لما شهده خارج مكان الاجتماع من قدوم الملك أو احتشاد الجماهير يعتبر أصلاً من الطبقة الأولى (١)

وفى بعض الأحوال يجد الباحث كتاباً طبع فى باريس فى ١٨٩٠ مثلاً . ومن المحتمل أن يكون مؤلفه قد نقله بنصه عن مؤلف سابق وضعه فى ١٨٥٠ بدون أن يشير إلى ذلك . فالمسؤول عن المعلومات الواردة هو الكاتب الأول السابق . ويحيع أن السطو على كتابة الغير والنقل منها بغير حساب قد نقص الآن ، ويمنعه القانون أحياناً ؛ ولكن كثيراً ما يجد الباحث أن من الأصول والوثائق ما هى إلا عبارة عن نقل حرفى لأصول ووثائق سابقة ، سواء قصد الناقل السرقة وانتحال المعلومات لنفسه أو جمعها لأنها تهمه وتفيده (٢) . فعلى الباحث فى التاريخ أن يتعقب الكاتب الأصلى ؛ وإنه لمن أهم المسائل فى هذه الناحية من النقد معرفة المصادر أو الوثائق التى أخذ عنها ذلك الأصل التاريخى . ومن الأمثلة على ذلك أن الباحث قد يعثر على مجموعة من الكتابات عن المصادمات البحرية بين العثمانيين والنسكان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر جمعها أحد المهتمين بإبراز بطولة النسكان وهو بستيانو بالبيانى ، ولكن بدون تحديد المصادر التى أخذ عنها (٣) . والبحث فى سجلات

(١) Minadoi, G. : Historia della Guerra fra Turchi e Persiani. Venetia, 1594. pp. 279—281

(٢) Fling : op. cit. pp. 65—66

(١) Fling : op. cit. p. 79

(٢) Langlois & Seignobos : op. cit. p. 94

(٣) Archivio di Stato di Firenze : Strozzani I. 145. Imprese delle Galer (1556-1610). Bastiano Balbiani. pp. 1-45 b.

أرشيف فلورنسا التاريخي يوضح أن بالبياني قد اقتبس مثلاً من أقوال بعض رجال الحملات البحرية التسكانية بقيادة الفارس فرنشسكو دل مونتى والأميرال أنجرامى فى الشرق الأدنى وفى شمال أفريقيا فى ١٦٠٧(١)

وقد يجد الباحث أحياناً مجموعات من الأصول والوثائق تتناول بحث نقطة معينة ، فينبغى إذاً جمعها وترتيبها وتقسيمها إلى مجموعات على حسب التقارب والاختلاف فى المعلومات التى توردها، وقد يكون التقارب شديداً أو قد يوجد اختلاف بين هذه الأصول والوثائق ، مثل الاقتصار والاجتزاء فى مواضع، والإطالة وإعطاء تفصيلات ومسائل جديدة فى مواضع أخرى . وقد توجد علاقة بين هذه الأصول التاريخية فى ناحية النقل أو الاقتباس عن مصدر أساسى واحد . فعلى الباحث دراسة هذه الأوجه كلها لمعرفة الشخص أو الأشخاص الذين كتبوا فى هذه النواحى المتشابهة والمختلفة لتقدير ووزن أقوال كل منهم ، وسنعود إلى ذلك عند بحث ناحية أخرى من نواحى نقد الأصول التاريخية

وقد يكون الأصل التاريخى من عمل أكثر من مؤلف واحد . فالكثير من الأصول تدخل عليها إضافات وزيادات وتعليقات فى مواضع مختلفة ، ثم تطبع ويعتبر الأصل وما أضيف إليه كأنه من وضع كاتب واحد . إلا أنه من الممكن بدراسة هذا الأصل كشف الحقيقة ؛ وإذا وجد الأصل المخطوط أصبح من السهل تمييز الأصل من الإضافات والزيادات . أما إذا ضاع الأصل المخطوط ولم يبق أمام الباحث إلا المطبوع أصبحت المسألة أكثر صعوبة . إلا أنه يمكن بالدراسة الوصول إلى نتائج معقولة . فيدرس الباحث اللغة : هل هى واحدة أم متغيرة ، والأسلوب هل هو واحد أم متغير ، وهل تسود الكتاب فكرة واحدة وروح واحدة ، وألا توجد خلافات ومتناقضات وفجوات فى تسلسل الأفكار ؟ وإذا كان الكاتب الذى أضاف فى موضع أو أكثر من النص الأصلى واضح الشخصية أمكن تمييزه ، وإلا بقى مجهولاً لدى الباحث فى التاريخ(٢)

ولنعرض لمثال حققه الدكتور أسد رستم ؛ فإنه قد عثر على مخطوطة صغيرة تتناول أخبار الدولة المصرية العلوية فى سورية فى زمن ابراهيم باشا ، وكانت غفلاً من اسم المؤلف . ووجد الدكتور رستم أنها ليست تاريخاً واحداً ، وإنما هى ثلاثة تواريخ فقسمها إلى (ا . ب . ج) ؛ ولاحظ أن هذه الأقسام لا تعطى حوادث متسلسلة ، ولا يبدأ قسم منها حيث ينتهى سابقه ، وأن الحوادث تتكرر فى أقسامها الثلاثة ، ولاحظ أيضاً أن (ا ، ج) يستعملان التاريخ الهجرى ، بينما (ب) يتخذ التاريخ المسيحى ، ووجد أن (ج) أكبر الأقسام ، وأن أخباره تتعلق بحوادث لبنان مع إعطاء تفصيلات شخصية ديرانية محلية عن دير القمر وبيت الدين . فرجح الدكتور رستم أن كاتب (ج) شخص لبنانى ديرانى ، أو أقام بدير القمر على الأقل . فقصد الدكتور رستم إلى المكتبة البطريركية فى بكركى ، وفحص أوراق ١٨٣١ — ١٨٤١ ، وبعد الدراسة الطويلة عثر على رسائل مكتوبة بنفس الخط الموجود فى (ج) ، وبنفس اللغة واللهجة ، وعليها إمضاء القس أنطون الحلبى . فاتجه الدكتور رستم إلى بطريرك الموارنة مارى الياس حويك ، وعرف منه أن القس أنطون كان من المقربين للأمير بشير الشهابى ، وأنه سكن بيت الدين ، وأنه كتب عن أحكام الأمير بشير ، وعن حروب ابراهيم باشا فى سورية ، وأن أغلب ما كتبه قد أحرق أثناء حوادث الصدام بين المسيحيين والدروز فى ١٨٤٥ . وإذاً ، فالقس أنطون الحلبى هو مؤلف المخطوطة (ج)(٢)

وليس يكفى أن نعرف اسم المؤلف فقط إذا كان مجهولاً ؛ والغرض من معرفة الاسم هو معرفة شخصية وصفات الكاتب لأن ذلك سيكون له قسط كبير فى تقدير قيمة المعلومات التى ترد فى الأصل أو المصدر التاريخى . فلا بد من أن يجمع الباحث كل المعلومات الممكنة عن شخصية كاتب الأصل التاريخى . وأحياناً يمكن للباحث أن يجمع معلومات عن شخصية المؤلف من بعض كتب التراجم ؛ أو يجمع معلوماته عن الكاتب من الأصل التاريخى الذى دونه . فمثلاً الكتابة المؤرخة فى ٢٤ يونيو

(١) Archivio di Stato di Firenze : Mediceo. 2077. pp. 747—749 b. & 751—758 b.

(٢) Langlois & Seignobos : op. cit. p. 93

(٢) أسد رستم : مصطلح التاريخ . ص ٣٤ — ٤٢

١٧٨٩؟ عن بعض حوادث الثورة الفرنسية في باريس وفرساي يفهم الباحث من لغتها وأسلوبها وطريقة عرضها ومعلوماتها أن كاتبها شخص مثقف، وأنه شاب قوي الجسم يمكنه أن ينتقل من باريس إلى فرساي أثناء المطر المنهمر؛ ويدرك الباحث أنه شخص متحمس جريء ثوري، يتكلم بصراحة ويقرر أن ممثلي الشعب لا يخافون الموت، ويعلم الباحث أيضاً أن الكاتب كان مهتماً بالحوادث التي شهدها لدقة وصفها وحسن التعبير عنها. ولا ريب فإن هذه الأوصاف تنطبق على «كاميل ديمولان» الذي كتب عن تلك الحوادث(١)

والمسألة التالية في هذه الناحية من النقد هي معرفة زمن تدوين ذلك الأصل التاريخي. فالأصل أو الوثيقة قد تكون صحيحة، وكاتبها قد يكون من الأشخاص الذين يتحرون الصدق والبعد عن الهوى، ومع ذلك فقد يُنقص من قيمتها بُعد الزمن بين وقوع الحادث ورؤيته وبين تدوين أخباره. فالذاكرة تخون الإنسان، ويفوت الكاتب حوادث وتفاصيل خاصة كلما بعد به العهد عن زمن وقوع الحادث مهما كانت رغبته في قول الصدق ومهما حاول استرجاع وقائع الزمن الماضي. فإذا كان الكاتب لم يحدد تاريخ تدوين الأصل التاريخي، فكيف يستطيع الباحث أن يحدد ذلك ولو بالتقريب؟ في بعض الأحيان يمكن بدراسة المحتويات وضع حدين لمبدأ ونهاية الأصل؛ أي إنه يعين التاريخ الذي لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله، والتاريخ الذي لا يمكن أن تكون هذه الحوادث قد وقعت بعده. ولتحديد ذلك ينبغي أن يكون الباحث صاحب ثقافة تاريخية واسعة تتعلق بالعصر الذي يدرسه. ولا بد أن تكون الوثيقة أو الأصل قد دون بعد آخر حادث ورد به؛ ولكن من الجائز أن يكون التدوين قد حدث بعد ذلك بزمن قصير أو طويل. وإذا فرضنا أن كتاب سفير البندقية في باريس لم يكن مؤرخاً، فإنه يمكن معرفة تاريخ كتابته بدراسة محتوياته. فالحوادث التي ذكرها السفير هي حوادث يونيو ١٧٨٩؛ وآخر حادث ذكره هو اجتماع مجلس طبقات الأمة في ٢٧ يونيو ١٧٨٩؛ وعلى ذلك فلا بد أن السفير قد دوّن كتابه بعد ذلك الحادث مباشرة وقبل أن يقع حادث آخر مهم. والمجلس اجتمع بعد ذلك في ٣٠ يونيو؛ فيكون السفير إذاً قد كتب خطابه إلى مجلس شيوخ البندقية في ٢٨ أو ٢٩ يونيو ١٧٨٩(١)

ثم يواجه الباحث في التاريخ مسألة أخرى هي مسألة تعيين مكان تدوين الأصل التاريخي؛ وهي مرتبطة كل الارتباط بما سبق. وسواء كان النص الموجود أمام الباحث أصلاً تاريخياً من الطبقة الأولى أو أصلاً تاريخياً من الطبقة الثانية فلا بد من معرفة مكان تدوينه. فهل دون شاهد العيان الحوادث في مكان وقوعها أو في مكان بعيد عنه؟ أو هل أخذ معلوماته عن أشخاص شهدوا الحوادث بأنفسهم، وأين كان ذلك؟ وهل كان التدوين في مكان وظروف تجعل كاتب الأصل التاريخي قادراً على تصوير الوقائع تصويراً صحيحاً، أم أن التدوين قد حدث في مكان بعيد واعتمد الكاتب على الذاكرة والخيال في سرد الوقائع؟ المعلومات التاريخية التي ترد في الأصل قد تحدد مكان التدوين في بعض الأحيان. أو قد يمكن معرفة ذلك في المعلومات العامة عن الكاتب. فمثلاً بابي كتب مذكراته في ربيع ١٧٩٢. ونعرف من التاريخ أن بابي كان في ذلك الوقت مقيماً في نانت. وإذاً فهو قد كتب مذكراته في نانت وليس في باريس مسرح الحوادث التي كتب عنها(٢)

(يتلى) حسين عثمانه

(١) Fling : op. cit. pp. 67—69.

(١) Fling : op. cit. pp. 72—73

(٢) « « p. 76

ثورة على ابن سينا

أو عقلية « الأركانا »

للدكتور جواد علي

لقد كان صاحب هذه الثورة ومؤجج نارها طبيب سويسري وفيلسوف أوربي عاش في مدينة « بازل » Basel عاصمة العلم في المقاطعات السويسرية الألمانية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر للميلاد[1]. طبيب كانت له نفس تواقة على التنقل من مدينة أوربية إلى مدينة أوربية أخرى ، ومن جامعة أوربية إلى جامعة أوربية أخرى في سبيل طلب العلم والحقيقة ؛ في سبيل إدراك كنه الإنسان وسر هذا الكون وعظمته

ولكنه كان حيث هبط في أرض أو حل في مدينة يجد الكتب اللاتينية المعربصة المترجمة عن العربية أو عن اليونانية تحتل المكان الأسمى في عالم علم ذلك الزمان ؛ ويجد الأطباء والعلماء يتجادلون في أبحاثهم وفق القواعد المنطقية المترجمة عن العربية أو اليونانية رأساً . يدونون آراءهم في الكون والإنسان وفق ما جاء في كتب ابن سينا ولاسيما كتاب « القانون في الطب » وكتب أرسطو وجالينوس . لم يكونوا يحكمون عقولهم ، أو يستخدمون التجارب في أبحاثهم ، أو يجيلون النظر في الأفق البعيد . وهذا ما ساءه جداً ودفعه إلى إعلان عصيانه وتمرده على كتب العرب واليونان معاً[2]

وقد عرف ذلك الطبيب الفيلسوف باسم الطبيب المتنقل « بارسلس » ؛ أما اسمه الحقيقي فكان يتركب في الواقع من بضعة أسماء ضمت بعضها إلى بعض على عادة ذلك الوقت كان يدعى أوروليس ثيوفراستس بارسلس بومباستس فون هوهنسهايم (Aureolus Theophrastus Paracel Sus Bombastus Von Hohens Heim).[1]

دعي بالطبيب المتنقل لأنه كان مشغوفاً بالأسفار محباً للتنقل من محل إلى محل ومن مكان إلى مكان . ولقد كون فيه هذا الميل عقلاً يختلف جداً في طراز تفكيره وأسلوب اشتغاله عن طراز تفكير واشتغال عقول علماء ذلك الوقت . جمّع في أنسجته وخلاياه خلاصة الثقافات الأوربية المختلفة والنزعات الثورية التي بعثتها النهضة الأوربية على القديم البالي ، وخلاصة النزعات العملية التي بعثتها التجارب العلمية التي بدأ يقوم بها علماء الطب والطبيعة في ذلك الحين . فشك في مقدرة كتب ابن سينا الطبية والفلسفية ، وتزلزل إيمانه بمقدرة كتب أرسطو أو أبقراط أو جالينوس على إنماش حياة الإنسان من الناحيتين الروحية والمادية . ونادى في المجتمعات العلمية وعلى رؤوس الأشهاد أن عصر ابن سينا واليونان يجب أن يزول ، وأن أياماً جديدة يجب أن تحل محل تلك الأيام[2]

كانت فلسفة ابن سينا فلسفة هادئة ؛ وكذلك كانت فلسفة حكماء اليونان لم يكن فيها ما يبعث على المجازفات والمغامرات والبحث عن الأسرار ومجاهل الأرض . بينما كانت أوربا تتمخض عن حركة جديدة ، هي حركة تسخير العلم في خدمة الإنسان والاستفادة من الطبيعة في سبيل رفاهية ابن آدم . كانت كلمة « الأركانا » Arkana[3] من أبرز الكلمات وأحلاها في قاموس علم ذلك الزمان . وكلمة أركانا تدل على معان جمة عميقة تدل على المادة السرية التي يمكن بواسطتها تحويل أي معدن خسيس إلى معدن ثمين[4] . ولا يستغرب صدور هذا الميل المادي

(١) ولد في سنة ١٤٩٣ وتوفي في سنة ١٥٤١ م ، راجع عنه كتاب سيدهوف وعنوانه K. Sudhoff Thophrastus ParaceLsus Sein Lepen und Seine Persönlichkeit 1903. وكذلك كتابه الموضوع في نقد حياة بارسلس وقد طبعه في مجلدين بين سنة ١٨٩٤ — ١٨٩٨ والكتب التي ألفها كل من F. Strunm في عام ١٩٠٣ و F. Gundolf في مجلدين في عام ١٩٢٨ و F. Peukert في عام ١٩٢٨ م أيضاً

(٢) راجع كتاب Ceschichte der Philoso للفيلسوف الشهير كارل فورلبندر K. Vorländer ص ٢١٠

(١) راجع كتب التراجم المذكورة وكتاب Scherr وعنوانه : Deutsche Kultur Und Sittengeschichte ص ٣٦٠ وكذلك كتاب « قواعد تاريخ الفلسفة » للفيلسوف الشهير وندلبند Windelband ص ٣٠٩ ، ٣١٣

(٢) راجع كتاب ألفريد روزنبرك وعنوانه Der. Mythus ص ٢٠١

(٣) وهي كلمة لاتينية معناها المقصود المادة السرية ، وتدل على نفس مدلول « حجر الفلاسفة » في اللغة العربية

(٤) راجع Scherr Deutsche Kultur s, 360

الجشع من إنسان ذلك الوقت . فقد قلب القرن الخامس عشر العالم رأساً على عقب . كدّس الذهب والفضة فى بلاط ملوك البرتغال والأسبان ، وحرم الشعوب الأوربية الأخرى من مصادر القوت والثروة . ووجد حملة سر « الأركانا » فى قصور الأمراء وملوك أوربا مرتزقاً حسناً جداً . كانوا يجوبون عواصم أوربا ليرضوا على سادتها آخر ما وصل إليه علمهم عن هذه الكلمة السحرية معشوقة الأغنياء . وكان أبرعهم وأشهرهم Georg Honauer . الذى تمكن بواسطة بضاعته فى علم (السيمياء[١]) وطلاقة لسانه ، من السيطرة على عقل الأمير (فردريك) أمير ورتمبرك فى عام ١٥٩٧ م ومن ابتزاز أموال الأمير بلا حساب ، لتحويل النحاس إلى المعدن الثمين الذهب . وقد سطر لنا عصر بارسلس عشرات وعشرات أمثال هذا العالم السيميائى الشاطر[٢]

كانت « الأركانا » رمز عقلية الجيل الجديد ، ذلك الجيل الذى سخر من عقلية من تقدمه ، لأنها فى نظره عقلية قديمة آسنة ذات تفكير قديم . كانت تؤمن بالخرافات وبزخارف القول وما جاء فى الأساطير . وما الأركانا فى نظره سوى ثورة جديدة على العصور القديمة وعلى ما أنتجته تلك العصور

ولكن الجديد فى عقلية الأركانا حقاً هو ثورة الفرد على الطبيعة وثورة الإنسان النشيط على الإنسان المتزن الهادئ ، ثورة الجرمانية على العربية واللاتينية[٣]

ولكى يبرهن ذلك الإنسان الجديد على أنه إنسان جديد فى كل شىء . إنسان عملى حر فى إرادته وتفكيره فرّق بين علوم الأوائل وعلوم الأواخر ، بين علوم الأجيال التى سبقت القرن الخامس عشر وبين علوم الأجيال التى ظهرت بعد هذا القرن . سمى علم السحر القديم مثلاً « علم السحر الأسود »[٤] ، فيميزه عن علم السحر الجديد الذى ابتدعه وسماه « علم السحر

(١) ليتميز هذا العلم من علم الكيمياء
(٢) راجع كتاب الدكتور كبور Dr. Gebauer وعنوانه Deutsche Kulturgeschichte ص ٨١
(٣) راجع Der Mythus ص ٢٥١
(٤) راجع Du Prel Die Magie 1912, Schmidt Phi. wort. و Levi, Gesch der M. 2 Bde 1926 s, 386

الأبيض »[١] . وعلم السحر الأبيض فى نظر إنسان ذلك الوقت علم جديد عملى مجرد عن الأباطيل والخرافات ؛ وقد ضن هذا الإنسان على القدماء حتى فى مصدر العلم فقال : إن مصدر علمه السماء ، أما مصدر علم القدماء فكانت الأرض[٢]

وما دام مصدر السحر الأبيض السماء ، فلم لا تكون للأجرام السماوية ذاتها يد فى مقدرات الإنسان ؟ آمن إنسان الأركانا بفعل البروج والأفلاك فى مستقبل الإنسان ، ولكنه لم يؤمن كما آمن الأولون . نعم آمن بقدرة البروج والأفلاك ، وأيقن بأهمية علم التنجيم ليتمكن بواسطة أسرار هذا العلم من معاكسة تأثيرات ما فى السماء ، وليسخر قوى البروج الخفية فى صالح الإنسان . أما الإنسان الأول ، فقد آمن بها إيمان رجل مستسلم للمشيئة والأقدار يرجو رضا القوى الخفية لتجلب إليه السعادة والرفاهية

رأينا تأثير السماء على الإنسان ، فلم لا يكون للأرض نفس هذا التأثير على الإنسان ؟ نعم ، للأرض إذاً أثر هام على سكان الأرض ، وللإنسان إذاً أن يبتدع علماً يقاوم تأثير هذه الأرض[٣] ، بل للأرض نفس الأثر ، حتى على ما فى بطون الأرض ، فإذا ما تمكن الإنسان من اكتشاف سر هذا الأثر ، تمكن من إيجاد العلاج الناجع لمقاومة تأثير الأرض . وقد بحث الإنسان عن المادة السرية التى يمكن بواسطتها تحويل المادن الخسيسة إلى معدن نفيس ، وتلك المادة المطلوبة السرية هى حجر الحكماء أو الفلاسفة كما كانوا يطلقون عليها فى القرن الخامس عشر الميلاد Steru der Weisen[٤] تؤثر على حياة الإنسان مجموعة قوى أخرى على رأسها « روح الإله العالمية » Gottliche Weltseelle[٥] التى تخللت جميع أجزاء هذا الكون ، وحلت فى كل شىء ، فأصبح الكون هو هو الكون ؛ وما الإنسان فى نظر بارسلس سوى « العالم الأصغر » Mikro Kosmos الذى هو صورة مصغرة « للعالم الأكبر » Marko Kosmos[٦]

(١) راجع Dr. Gebauer Deut Kultur s, 81 والمراجع السابقة
(٢) راجع Walter Schönfelder Philo im Überblick 1928 s, 21
(٣) Othmar Spann Philo Spiegel s, 275 271
(٤) Dr. Gebauer s, 81
(٥) نفس المصدر ص ٨١
(٦) Aster Gesch der Philo s, 175

وقد أسبغ صاحبنا على نظريته هذه ثوباً من أثواب الحلولية التى ترد فى الصوفية الإسلامية أيضاً[١] وقد كان لها صدى بعيد فى أنحاء أوربا ، أثرت على أفكار فلاسفة الطليان والألمان والإنكليز وغيرهم أمثال كيور دانو Ciordano[٢] وكامبنيلا Campenella[٣] وتيليزيو Telesio[٤] وروبنشلين Reuchlin[٥] وبرونوميلنشتون Bruno Melanchton[٦] وأكريبا فون نيتيسهايم Agripa von Nettesheim[٧] وهرمان لوتسه الفيلسوف الألمانى الشهير (١٨١٧ — ١٨٨١ م) فى القرن التاسع عشر للميلاد[٨] قال بارسلس وفى العالم الأصغر وهو الإنسان قوى بنائية روحية تقاوم الأرواح الخبيثة التى تكون فى الخارج وتساعد على بناء الجسم ودوام اتصاله بالعالم الأكبر ، وما العالمين سوى وحدة واحدة لا تتجزأ لذلك ، فأنا العالم والعالم أنا[٩] وقد سمى هذه المـادة Archeus من كلمة Arche اليونانية ومعناها المادة الأساسية أو الأساس . وكان الفيلسوف اليونانى أنا كسمندد قد استعملها لتدل على هذا المعنى[١٠] والعلم الذى يبحث عن هذه المادة هو أشرف العلوم ؛ وحيث أن الطب هو العلم الباحث عنها ، لذلك كان علم الطب هو أشرف العلوم طراً وقد شرفه حتى على علم اللاهوت[١١].

(١) راجع كتب الأستاذ ماسنيون عن الحلاج و Max. Horten فى كتابه عن الفلسفة الاسلامية ، وكذلك بوير وغيرهم

(٢) فيلسوف إيطالى حر التفكير كان من المعارضين للكنيسة (١٥٤٨ — ١٦٠٠) . راجع Kuhlenbeck 1913 و Riehl 1900 وشميد س ٨٩

(٣) فيلسوف إيطالى ولد فى عام ١٠٦٨ وتوفى فى عام ١٦٣٩ راجع كتابه « مملكة الشمس » وقد طبع عام ١٩٠٠ م

(٤) فيلسوف إيطالى كذلك من الفلاسفة التجريبيين، ولد عام ١٥٠٨ وتوفى عام ١٥٨٨

(٥) من الانسانيين وقد حكم عليه بالهرطقة (١٤٥٥ — ١٥٢٢) راجع Geiger 1871

(٦) فيلسوف تأثر بالمبادئ التيوسوفية الشائعة فى ذلك العهد

(٧) طبيب وفيلسوف ، وكان من المعتقدين بالسحر ، وكان يسخر من علوم زمانه (١٤٨٦ — ١٥٣٥) وقد ترجمت كتبه إلى الألمانية

(٨) (١٨١٧ — ١٨٨١) فيلسوف وعالم فسيولوجى ؛ راجع كتبه

(٩) وهى فكرة الحلولية . راجع Arthur Eloesser وعنوان كتابه (تاريخ الأدب الألمانى) س ٣٤ ، ٣٥ ج ١

(١٠) راجع Schmidt Philo s, 39

(١١) K. Vorländer s, 210

ومن واجب الطبيب تنظيف هذه المـادة مما قد يتعلق بها من الأرواح الخبيثة وذلك بواسطة العقاقير والأدوية المفيدة . وقد حضر الطبيب الفيلسوف قائمة بأسماء العقاقير والشروبات المدنية والأدوية السرية التى تنفع لمقاومة الأمراض النفسية والجسمية معاً . وما الأمراض فى نظره سوى صراع بين الـ Archeus وبين الأرواح الخبيثة والقوى الخارجية المحيطة بالإنسان[١] . وبقدرة هذه العقاقير والمواد السحرية يستطيع الطبيب الذى هو أقرب مخلوق إلى الله من تنظيف الروح والجسد من الأدران ومن رفع مستوى البشرية إلى مصاف الأرواح السماوية العليا ، وبذلك يتم الاتصال بين « العقل الأول » أو « الروح » وبين العقل الثانى وهو الإنسان . ولذلك كانت لهذه الفلسفة شهرة عظيمة بين رجال المتصوفة من الأوربيين ولا سيما الألمان منهم ، فظهر حلاجهم وهو يعقوب بوك Jakob Boehme[٢] ؛ وظهر فالنتين وأيكل Valentin Weigel وظهر أمثال لهذين المتصوفين ينادون بالفناء والاتحادية[٣]

وبعد أن أتم بارسلس وضع قائمة عقاقيره السحرية أجج فى ليلة عيد الغفران من عام ١٥١٧ ناراً عظيمة فى حفل رهيب وتقدم فى موكب يتبعه تلاميذه والمعجبون بآرائه يحمل بيديه « إنجيل الاطباء » وهو كتاب « القانون فى الطب » لابن سينا « لوثر الأطباء » كما كانت أوربا تسميه Luther der Arzte ؛ وبعد خطبة وحفلة دينية مؤثرة ندد فيها بآراء ابن سينا وزعماء الطب من العرب واليونان ، ألقى بكتاب القانون فى النار معلناً بذلك دخول أوربا فى عصر تفكيرى جديد . ولكنه قوبل من الناس بازدراء عظيم واضطرت بلدية المدينة إلى إخراجه من مدينة « باذل » لتجاسره على كرامة أعظم طبيب عرفته العصور[٤]

اجتمعت فى بارسلس سذاجة القدماء وتفكير المحدثين . كان

(١) نفس المصدر

(٢) كان من أشهر متصوفة الألمان وهو حلولى يفرق بين ظاهر الشريعة وبين الحقيقة على مثال متصوفة المسلمين . راجع كتاب فوليندر س ٢١٩ ولد عام ١٥٧٥ وتوفى عام ١٦٢٤ للميلاد

(٣) ولد هذا الصوفى عام ١٥٣٣ وتوفى عام ١٥٨٨ . راجع فورلبندر س ٢١٨

(٤) تجد القصة مفصلة فى تراجم حياة بارسلس ومختصرة في كتاب الفيلسوف Vorländer س ٣١٠

٢ ـ الصحافة والدولة

تأليف الصحفى العالمى ويكهام استيد

للأستاذ زين العابدين جمعة
المحامى

أما بالإضافة إلى إيطاليا فمجرد النظر فى « الكتاب السنوى للصحافة الإيطالية » وفى صفحاته التى تربى على الألف صفحة كاف لأن تتكشف معه الحقيقة عن أمر تلك العبودية التى انتظمت الصحافة الفاشية فأمست خاضعة لها . ولقد كانت كبريات الصحف الإيطالية مثل صحيفة « الكوريرى دلاسيرا » التى تصدر من ميلان وصحيفة « الاستمبا » التى تطبع فى تورين — وحسبنا منها هاتان الصحيفتان — تنافس أعظم الصحف فى أوربا وتناهضها قبل أن تبتدع الفاشية نظاماً . بينما كان الصحفيون الإيطاليون ينعمون فى كتاباتهم بنصيب من الألمعية وبراعة الأسلوب ورقة العبارة لا يطاولهم فيه أحد

ولقد انتهى أمرهم اليوم إلى أن نظموا فى سلك « النقابات » والجمعيات الرسمية وأمسوا وهم لا يستطيعون أن يؤدوا عملهم ما لم تدون أسماؤهم فى سجل المهنة ، ليكون ذلك شاهداً على استقامة رأيهم وسلامة عقيدتهم فى النظام الفاشى . ولقد حددت مركزهم تلك الأوامر (الملكية) المعقدة تعقيداً لا حد له ، وصيرتهم موظفين مؤتمرين بأوامر تلك الفئة الوحيدة التى تحكم الدولة . ولقد تلقى الصحفيون الإيطاليون درساً قاسياً عرفوا منه ما ينتهى إليه التمرد على الفاشية من مصير وخيم . فلقد رأوا أنبل الناس نفساً وأوفرهم استقامة بين ظهرانيهم يضربون بتلك الهراوة الفاشية ضرباً مبرحاً ، وقد يكون مميتاً — كما كان من أمر (جيوفانى أمندولا) — أو يحكم عليهم بعدد طويلة فى الأشغال الشاقة ، أو يرسلون إلى معسكرات ضاقت بمن سيقوا إليها أو زجوا فيها ، أو يوضعون تحت مراقبة البوليس فى الحالات الأخف وزناً وفى المخالفات الأقل خطورة وحتى أولئك الذين أمكنهم أن يهربوا من إيطاليا كالمرحوم (كارلو روزلى) قد أدركوا أنهم لم يكونوا بمنجى من أن تصل إليهم أيدى المجرمين ومُدى السفاحين

لذلك نجد فى الفصل الذى عنوانه : (روح الصحافة الفاشية وكيانها) — المذيل بعبارة عهد موسولينى كعنوان إضافى — من الكتاب السنوى للصحافة الإيطالية موضوعاً أقتبس منه ما يأتى :

« ووقتما ابتدعت الفاشية نظاماً للدولة ، واختفت من الميدان الصحف المعارضة بعباراتها القارصة وأسلوبها اللاذع ؛ ووقتما اهتدت إلى صوابها الصحف الناقمة الخارجة — تلك الصحف التى ذاعت ثقافتها العقلية التقليدية وكان لزاماً أن تحترم على الأقل ما بقيت لها ألقابها القديمة — فقد أحس الجمهور لوقت ما بشعور من الحيرة والارتباك ليس من الأمانة أن ينكر . إذا كان مما يتواتر على ألسنة الناس قولهم : « أيسعنا أن نقرر أن الحكومة لم تعد تخطىء ، وأن الدولة دائماً على صواب ؟ ؟ — وذلك لأن الجمهور الساذج غير المثقف يختلط عليه أمر « الحكومة » و « الدولة » فيخالهما شيئين مختلفين مع أنهما اليوم وحدة لا تتجزأ لها ذاتيتها وخاصيتها . ومراعاة للأمانة والحق يجب أن نقرر أيضاً — ما دام الدوتشى نفسه قد قرره — أن طبع الصحافة بالطابع الفاشى لم يكن بالأمر القريب المنال بل كان أمراً شاقاً ومنهجاً صعباً » ثم يحدثنا الكتاب السنوى إلى ذلك قائلاً : « ولكن أيسع أحداً اليوم أن يخبرنا عما إذا كانت الصحف هى التى تكون الرأى ، أو كان الرأى هو الذى يكون الصحف ؟! » ثم يضيف إلى ذلك :

« والصحف تارة تتقدم الأسلوب الثورى وتارة أخرى تكون لاحقة له عند ما يجرى قلب أوضاع المجتمع فى سبيل المدنية الحديثة انقلاباً جوهرياً ، تلك المدنية التى جددت أسلوب النظم العامة والخاصة ووظيفتهما ، فى شعوب أوربية

زمانه زمان انتقال فطبعه بطابعه الخاص . وجد المحدثون فى زماننا فيه رمزاً من رموز التفكير العنيف والانسانية الفعالة . وعلى الأخص الكتاب الأوربيون منهم . وجد فيه ألفريد دوزنبرك رجلاً أوربياً أعلن حرب الجرمانية على السامية واللاتينية ؛ لذلك أسست جمعية أطلقت على نفسها اسم جمعية بارسلس قامت بنشر رسائله ومؤلفاته لأبناء القرن العشرين[1]

ميراد على

(١) راجع Schmidt s, 471 وكتاب Der mythuo s, 251

عظيمة كإيطاليا وألمانيا . ففى هاتين الأمتين نجد الصحافة اليومية وقد تميزت عن سائر الصحف الأخرى فى باقى أمم الأرض تميزاً واضحاً »

فما هو هـذا الشىء الذى يميز الصحافة النازية الألمانية والفاشية الإيطالية عن غيرها من صحف العالم ؟؟ هنا يتولى « الكتاب السنوى » شرح هذا الفارق المميز فيقول :

« إن الفاشية التى كانت النتاج المبكر بين حركات التجديد فى أوربا كانت حرباً صليبية كبرى لتحرير الروح الإيطالى ... فهل كانت رجعة إلى الفطرة الأولى ؟؟ نعم ، ولكنها فى الواقع مفتتح ثورة فعالة من شأنها أن تعيد إلى الشعب فى غداة ثورة تاريخية عظمى نوعاً من العيش الفذ والحياة المبكر » . ثم يقول « الكتاب الثانوى » أيضاً :

إن الصحافة الفاشية قد بعثت شباب إيطاليا بعثاً جديداً ووضعت أمام عينيه ـ وقد أجادت الاختيار واحترزت من أمره ـ حقائق لها قيمتها التاريخية لا مجرد أخبار مشوشة مضطربة . وما برحنا على حال لا يضايقها أن نقرر أن الصحافة قد أدت رسالتها تحت لواء النظام الفاشى ، ذلك النظام الذى وضع الصحافة فى الصف الأول ومنحها قيادة نبيلة ؛ الأمر الذى أصبح معه خضوع الصحف « لرأى الدولة » وهو من نوع استسلام الجندى المخلص لا من نوع تلك العبودية المفروضة على تابع أحسن إليه . و « رأى الدولة » هذا قد ورد ذكره وعرف فى المجلد الثامن من كتاب « كتابات وأقوال بنتو موسولينى » إذ جاء به : « إن رأس الحكمة الفاشية هو إدراك معنى « الدولة » ومعرفة جوهرها وفهم أعمالها والإلمام بأغراضها ومراميها . فإذا كان من مقتضيات الفاشـية أن تكون الدولة مطلقة التصرف فذلك من جهة تلك الصلات التى تربط الأفراد والجماعات بالدولة وتربط الدولة بهم . ولا يباح للأفراد والجماعات الحق فى التفكير وتكوين الرأى إلا إلى الحد الذى لا يتعدى نطاق ما اختطته الدولة . والحكومة الحرة لا تدبر أمر أعمال المجتمع وتصرفاته ولا تنهض بتقويم نتاجه المـادى والروحى بل يقتصر أمرها على مجرد تسجيل النتائج ؛ بينما نجد الحكومة الفاشية ولها ما اختصت به من إدراكها لهذه المسائل ومن اختيارها لما تختاره منها ومن مشبثتها فيها ولهذا السبب لقبوها بالحكومة « الأدبية » ... »

* * *

انتهينا فيما تقدم — وبعبارة صريحة — من عرض المميزات والفوارق الأساسية بين وظيفة الصحافة فى الحكومة الاستبدادية ووظيفتها فى الأمم الحرة التى ما زالت حرية الأفراد فيها وهى تعد أمراً طبيعياً فى ذاته ؛ ولو كان المبدأ القائل بأنه : « فى سبيل الفاشية يجب أن تكون الحكومة حكومة مطلقة » هو مبدأ إيطالى الأصل والنزعة ، لساغ أن يتقبله العقل الإيطالى وأن يتحمل ما ينطوى عليه من أعباء الممارسة الفعلية لمسألة هى أهم مسائل النظام الاجتماعى والسياسى . ومهما كان من التناسق والتلازم فى أفكار موسولينى السياسية ، فهى مأخوذة — على وجه أو وجهين — من آراء « هيجل » الفيلسوف الألمانى الذى صيغت آراؤه عن الدولة ـ ولاسيما الدولة البروسية ـ فى قالب صعب لأكثر من عصر مضى ؛ ولم يكن ما تلقاه « فردريك انجلز » ، « كارل ماركس » من آراء « هيجل » ؛ وما أوحى به إليهما فيما انتهيا إليه من نظر عن الدولة الشيوعية بالشىء القليل ، وعن « ماركس » ، « أنجيلز » تلقى « جورج سوريل » رسول النقابية[1] فى فرنسا أول ما تلقاه من مبادىء العنف النقابى كوسيلة للانقلاب السياسى والاجتماعى قبل أن يتعقبها إلى منبلها فى فلسفة « هيجل » ، وينهل من هذا المنبع المسموم ؛ وعن « سوريل » تلقى « موسولينى » بدوره هذه المبادىء الضارة والنهج الوبيل

فلقد صرح « هيجل » آنئذ فى كتابه المعروف « بفلسفة التاريخ » بأن الدولة هى أسلوب فعال مطلق ، وتجسيد لفكرة (أى تجسيد الحقيقة المـاثلة وراء الظواهر) . وعنده أن تلك الكائنات الحية التى تعيش تحت ظلال هذا الأسلوب من الحق المطلق ، ليس لها من الحق فى الاعتبارات المستقلة بأكثر أو بأقل مما للخلية بالإضافة إلى الهيكل البشرى ؛ وهو يقول: « إن الدولة هى أسمى فكرة وأجل وحى وأنبل خاطر ، يغمر الحياة ويعيش على وجه الأرض » ، لأن : « جماع ما للكائن الحى من قيمة وجماع ما ينعم به من الحقائق الروحية ، إنما يتهيأ له فقط ويأتيه عن طريق الدولة » ؛ يضاف إلى ذلك أن : الدولة غاية فى نفسها وشىء قائم بذاته ، وهى الغاية القصوى التى يسمو حقها الأعلى على حق الفرد الذى ينطوى أسمى واجباته فى أن يكون فرداً فى الدولة

(١) النقابية : حركة عمالية قوامها العمل على نقل وسائل الانتاج والتوزيع من ملاكها الحاضرين لاتحاد العمال ونقاباتهم . وسبيلها إلى ذلك عادة هو الأضراب العام .

وهذه التعاليم هي من نوع التوفيق بين وجهة النظر الحرة ووجهة النظر المسيحية على حقيقتها في الحياة . إذ كلا النظرين يجعل لشخصية الإنسان قيمة عظمى . تلك الشخصية التي يمدها المذهب الحر المنصر الأولى الذي لا غنى عنه في مجتمع مكلف حر من الكائنات الإنسانية . بينما تنظر إليها العقيدة المسيحية كمستودع للنفس الخالدة . والصحافة الحرة قد هيئت لأن تنهض فور الوقت بواجبها نحو الحرية الاجتماعية والسياسية إذ تكون لسانها الناطق وخادمها الأمين . إلا أن الأمر يختلف عن ذلك تحت نير تلك النظم السياسية التي تعامل الفرد كمجرد تابع خاضع في كل شيء لإرادة حكومة مطلقة تعبر عنها أوامر حاكم مستبد حيث لا تصادف الصحافة الحرة ولا الصحفيون الأحرار أي عدالة أو ضمان

ولكن المسألة لا تنتهي عند هذا الحد إذ تصل إلى الأعماق من فلسفة الصحافة ذاتها . ففي الأمم الحرة ليس من شأن الصحافة ، ولا يمكن أن يكون من شأنها ومن شأن ما يسمى أحياناً (بمسئولية) الصحفي، أن تكون مجرد صدى يردد ما يجري على لسان الحكومة من رأي . أو تمنى بالتزام ذلك الصمت الذي يأخذ رجال السياسة أنفسهم به ، أو يجري في عقيدتهم أنه من مقتضيات المراكز التي يشغلونها . والصحف المستقلة إن أيدت الساسة في خططهم وكانت لهم سنداً في الاحتفاظ بمراكزهم فهي إنما تمنحهم هذا العون طليقة مختارة وعن عقيدة شخصية قوامها أن هؤلاء الساسة يخدمون مصالح المجتمع جهد طاقتهم

ولقد بين « روبرت لو » (اللورد شربروك فيما بعد) الفارق بين واجبات الصحافة الحرة وواجبات رجال السياسة بياناً علمياً صائباً في المقالين الافتتاحيين الخالدين اللذين حررهما لصحيفة « التيمس » في ٦ ، ٧ فبراير عام ١٨٥٢ وقتما كان « ديلان » ينهض برئاسة التحرير فيها

ففي شهر ديسمبر من عام ١٨٥١ قام « لويس نابليون » بحركة غير مشروعة كان من أمرها أن وثب إلى كرسي الامبراطورية في فرنسا فنصب نفسه إمبراطوراً للدولة التي كان يتولى رئاسة الجمهورية فيها . وكان من أمر اللورد « بلمرستون » الذي كان يتولى وزارة الخارجية في ذلك الوقت من وزارة « رسل » أن أقر بالنيابة عن بريطانيا العظمى هذا الأمر الواقع من غير أن يراجع زملاءه في ذلك ويبادلهم الرأي ومن غير أن يخطر المليك به . وإذ ذاك قامت قيامة صحيفة « التيمس » وآذنته هو و « لويس نابليون » بحرب شعواء جاهدتهما بها وناهضتهما فيها . ولقد بلغ من قسوة هذا النضال المنيف وما صبغ به من عبارة قارصة وأسلوب لاذع أن « ضاق لويس نابليون به صدراً » وثارت ثائرته عليه ، وأن غضب له من شايعه من الوزراء البريطانيين وحاولوا أن يفلتوا من حملاتها بتحكيم فيها . إلا أنه لم يكن من أمر إقرار « بلمرستون » لذلك الانقلاب الغير مشروع والذي كانت له اليد الطولى فيه إلا أن انتهى بعزله ، إذ احتجت المليكة احتجاجاً حازماً على ما كان من خطل نهجه ، وأبى عليه رئيس الوزارة قبول معاذيره أو إقراره على حججه . واختير فملأ « لورد جرانفيل » خلفاً له ووزيراً للخارجية من وزارة رسل . وعقب ذلك بحوالى الشهرين سقطت وزارة رسل بأجمعها . ومحين الفرصة « اللورد دربي » الذي خلف « لورد جون رسل » في رئاسة الوزارة . فما أن واتته — بمناسبة ما ثار وقتئذ من نقاش وما ألقى من خطب رداً على خطاب العرش — إلا أنحى على صحيفة التيمس باللائمة وقبح منها ما كان من سفور النقد وصراحة العبارة زاعماً : « أنه إذا كان من حق الصحافة البريطانية في هذه الأيام أن تطمح لأن تقاسم الساسة سلطانهم ، أفلا يحق علينا أيضاً أن تقاسمهم مسئولياتهم ؟ ؟ »

ولما كان « ديلان » صحفياً مستقلاً يعرف لحرية الرأي حقها وخطرها ، فقد أحس من نفسه رغبة ملحة في ألا يدع هذه النظرية تمر من غير تحقيق وتمحيص ومن غير أن يظهر وجه الصواب منها ، فأوحى إلى « روبرت لو » أن يفندها ، وأن يبين للناس المبادئ التي تنظم كلا الأمرين حرية الصحافة وواجبات الصحفي في المجتمع الحر . ولقد نهض « لو » بهذه الحاجة برأي حازم وبصيرة نافذة ؛ وإذ أخذ في مناهضة تلك المزاعم ومناقشة هذه القضية المنطقية التي أثارها « لورد دربي » بما زعمه من أن الصحافة التي تطمح في أن تشاطر الساسة سلطانهم يكون لزاما عليها أيضاً أن تشاطرهم مسئولياتهم ، كتب في عدد التيمس الصادر في اليوم السادس من شهر فبراير عام ١٨٥٢ المقال الآتي :

إذا كان الطرف الأول من هذه القضية ثابتاً مقرراً فلا جرم أن الطرف الثاني يتبعه في هذا الثبوت بداهة . ونحن من بين الناس جميعاً أقلهم ميلاً لأن نضع من شأن ما نهض به من عمل خطير أو ننكر ما يقع علينا من مسئوليات وما ننعم به من سلطان

١١ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تعليم البنات

قلما يتعلم البنات القراءة والكتابة . وكذلك لا يتعلمن الصلاة حتى بنات الطبقة الراقية . ويستخدم بعض الأغنياء « شيخة » لتزور الحريم يومياً فتعلم بناتهم وجواريهم إقامة الصلاة وتلاوة بعض سور من القرآن . وقد تعلمهن القراءة والكتابة ، إلا أن هذا ، حتى لنساء الطبقات الراقية ، شيء كالى يندر أن يتم [١] . وهناك عدة مدارس تعلم فيها البنات الخياطة والتطريز الخ . ولكن إذا سمحت الظروف يعهد بالبنات إلى « معلمة » تعلمهن تلك الأشغال في منازلهن

(١) وقد تتلقى بنات الطبقات الوسطى علومهن مع الأولاد في مدرسة واحدة . إلا أنهن عادة يلبسن الحباب ولا يخالطون الأولاد . وكثيراً ما شاهدت بنات حسان الهندام يقرأن القرآن في مدرسة البنين .

الفصل الرابع

الحكومة [١]

قاست مصر — هذه السنوات الأخيرة — تقلبات سياسية عظيمة ، وزالت تبعيتها للباب العالي إلا قليلاً . وقد استقل حاكمها الحالي محمد علي تقريباً ، بعد أن أباد الغُز أو المماليك الذين شاركوا أسلافه الحكم ؛ إلا أنه أعلن ولاءه للسلطان ، وأصبح يؤدي الخراج للأستانة كما هي العادة . ثم إنه خضع لأحكام القرآن الأساسية والسنة . وهو — خلافاً لذلك — يتمتع بسلطة لا حد لها [٢] . فهو يستطيع أن يقضي على أي فرد من رعاياه بالموت دون محاكمة أو تعيين سبب . وكفاه أن يحرك يده حركة أفقية بسيطة ليتضمن ذلك حكم الإعدام . ولكن يجب ألا يفهم من كلامي أني ألمح بميله إلى سفك الدماء بلا موجب. إن من طبع هذا الوالي الصرامة الحازمة لا القسوة الشريرة . وقد دفعه طموحه المطلق إلى جميع الأعمال ، فكان يجلب لنفسه المدح تارة أو الملامة تارة أخرى [٣] . ويوجد في قلعة العاصمة مجلس للقضاء يسمى (الديوان الخديوي [٤]) ، يرأسه في غياب الباشا نائبه (الكخيا) [٥] حبيب أفندي . ويبت رئيس الديوان الخديوي في الأمور التي تخرج عن اختصاص القاضي أو التي تكون واضحة بحيث لا تحتاج إلى الرجوع إلى القاضي أو أي مجلس آخر

(١) لما كان الاصلاح السياسي الذي أجراه محمد علي ستبقى أهميته العظيمة على الدوام ، ولما كانت التغييرات التي أحدثها خلفاؤه في نظمه قليلة الأهمية وعلى العموم مخالفة لسكل تقدم ، فقد أبقيت هنا دون تغيير جوهري وصف حكومة مصر في سنتي ١٨٣٤ و ١٨٣٥ وهما خير سني حكمه

(٢) وإن كانت أرض ولايته نقصت كثيراً منذ كتابة هذا إلا أن سلطته في مصر بقيت كما هي على التقريب

(٣) إن حكومة مصر منذ الفتح العربي لم تتغير كثيراً عما هي عليه الآن في تأثيرها على شمائل السكان وعاداتهم وطباعهم ، ولذلك أرى أن لا حاجة إلى عرض تاريخ الماضي لتوضيح هذا الكتاب . إلا أنه يجب الاشارة إلى أن المصريين لا يسمح لهم الآن بالاستمرار في معاملة النصارى واليهود بتلك الغلظة التعصبية الشديدة التي كانوا يعاملونهم بها قبلا . ومن هنا يدين السياح الأوربيون لمحمد علي بالشكر ويعترفون له بالجميل . وقد يزيد هذا التقييد شعور التعصب الزائد بادئ الأمر ، ولكنه سيلطفه على الأرجح بمرور الزمن . ولم يتم بعد هذا التنبؤ ، وعلى النقيض من ذلك أثار استعمال العظماء ومستخدمي الحكومة لبدع الأوربية في ملبسهم وشمائلهم وعاداتهم المنزلية تعصب رجال العلم والدين وجملة الشعب عموما

(٥) « خديوى » نسبة إلى الكلمة التركية « خديف » أي الأمير

(٤) هكذا ينطق به في مصر والأصح « كياحيا » أو « كتخدا »

نستمده من قوة الشعب وثقة الجمهور . إلا أنه لا يسعنا مهما يتهيأ لنا من أمر هذا السلطان سواء أكان عظيماً أم صغيراً ، أن نقرر أن من مقتضياته أن نشاطر رجال السياسة أعمالهم ، أو أن هذا السلطان مقيد بمثل ما يتقيد به وزراء التاج من قيود العمل والزمن . وبمثل ما يلازمهم من واجب ومسؤولية ، فكل من هذين السلطانين متميز عن الآخر تمام التميز في مقتضياته وواجباته . وهما على العموم أمران مستقلان ، وأحياناً شيئان متعارضان يسيران على خطين متوازيين فلا يتقابلان ، والصحافة تعبث بحريتها وتقيدها وتحد من نشاطها إثر تلك اللحظة التي تقبل فيها أن تشغل مركز المسود من السيد ، وأن تنزل منزلة التابع من المتبوع ؛ وهي إن عنيت بتأدية واجباتها باستقلال صحيح تام ؛ وبالتالي بما يتطلبه منها جماع المصلحة العامة ، لما وسعها أن تهادن رجال الساعة من الساسة أو تحالفهم ، أو أن تخضع مالها من شأن خالد ونفع متواصل لما يتهيأ لأية حكومة من سلطان موقوت ونفوذ سرعان ما يزول عنها أو تزول عنه

(البقية في العدد القادم) زكي العاصي جمعة

وقد أقيمت في أنحاء العاصمة دور كثيرة للشرطة ، في كل منها بلوك نظام أي فرق منظمة . ويسمى الشرطي « قلق »[١] أو « قراقول »[٢]. ويقبض على من يتهم بالسرقة أو السطو الخ ويقاد إلى دار الشرطة الرئيسي في الموسكي حيث يسكن أغلب الفرنج . وبعد أن تثبت التهمة كتابة يقاد المتهم إلى « الضابط » أي رئيس شرطة العاصمة . وبعد أن يسمع الضابط القضية يرسل المتهم للمحاكمة أمام الديوان الخديوي[٣].

وعند ما ينكر المتهم الجريمة الموجهة إليه ، ولم يكن هناك دليل على الإدانة ، يجلد ليحمل على الاعتراف بجريمته . وحينئذ ، إن لم يكن قبلا ، يعترف المتهم بالجريمة إذا كانت طبيعتها لا تعرضه لعقوبة شديدة . ويعترف اللص عادة بعد هذا التعذيب بقوله : « إن الشيطان أغراني ففعلت » وعقوبة المجرمين يرتبها نظام مستبد ولكنه لطيف حكيم . ويكون عادة بإلزامهم القيام ببعض الأشغال العمومية مقابل قوت قليل ، مثل نقل القمامة وحفر القنوات الخ . وقد يجند الشبان الأقوياء متى كانت التهمة طفيفة . ويستحق محمد علي على استخدامه المجرمين لإصلاح البلاد وتحسينه المدح الذي كان وقفاً على سابا كون Sabacon[٤] الفاتح الحبشي وملك مصر الذي يقال إنه أدخل هذا النظام ؛ إلا أن الباشا كان شديداً في معاقبة الجرائم التي ترتكب ضد شخصه فالإعدام هو العقوبة العادية في أحوال كهذه.

(١) من التركية « قول اق »

(٢) والعامة يقولون « كركون »

(٣) كثيراً ما يستبد القائمون بأمر هذا المجلس وما أشبه كما أن إتمام الاجراءات ينقصه الوقار والأدب . فكثيراً ما يستعمل الموظفون الأتراك حتى الكبراء منهم ألفاظاً لا أستطيع أن أذكرها لشدة ما تتقزز منها النفس ، نحو المتقاضين .

(٤) سابا كو Sabaco أو شاباك Shabak أحد ملوك الأحباش . جرد حملة على مصر ونشر سلطانه عليها (٧٢٨ قبل الميلاد) . ولقب بملك مصر ، ولكنه ترك مباشرة الحكم لأخته أمنيريتس Ameniritis وزوجها بيانخي Piankhi . وكثيراً ما يرى شاباك وأخته على جدران معابد طيبة وغيرها .

وتؤكد الروايات اليونانية القديمة أن هذا الملك الحبشي حكم مصر حكما لطيفا فلم يلجأ أبداً إلى حكم الاعدام واستخدم المجرمين في حفر القنوات وبناء الخزانات

(أنظر The Historians's History of the World الطبعة الخامسة سنة ١٩٢٦ الجزء الأول ص ١٧٦) (المترجم)

وهناك عدة مجالس دنيا لإدارة شئون الأقاليم المختلفة ، وأهمها : أولاً . « مجلس المشورة » ويقال أيضاً « مجلس المشورة الملكية » تمييزاً له من المجالس الأخرى . ويختار الباشا أعضاء هذا المجلس والمجالس المشابهة الأخرى ممن يتحلون بمواهب أو صفات أخرى . ولذلك تخضع جميع قراراتهم لإرادته ورغباته ؛ وهم آلته ورهن إشارته ، ويكونون لجنة تشرف على إدارة البلاد العامة وشئون الباشا التجارية والزراعية . وتعرض العرائض الموجهة إلى الباشا أو إلى دواوينه المتعلقة بالمصالح الخاصة أو بشئون الحكومة على أعضاء المجلس وتخضع لتقديرهم وحكمهم ، إلا إذا وقعت في اختصاص المجالس الأخرى المذكورة فيما بعد . ثانياً (مجلس الجهادية) أو (مجلس المشورة العسكرية) واسمه يدل على مدى اختصاصه . ثالثاً مجلس (الترسخانة) أو البحرية . رابعاً (ديوان التجار) وقد أنشئ هذا المجلس الذي يتكون أعضاؤه من تجار مختلفي البلاد والدين تحت رئاسة (الشاه بندر) لينظر في بعض الأحوال الناشئة عن المعاملات التجارية الحديثة مما لم ينص عليه في القرآن أو السنة

ويتولى قاضي القاهرة القضاء في مصر لمدة سنة واحدة ثم يرجع عند انتهائها إلى الآستانة . وجرت العادة أن يقوم القاضي من القاهرة مع قافلة الحج الكبيرة إلى مكة فيقضي واجبات الحج ويبقى في المدينة المقدسة سنة واحدة ، وفي المدينة المنورة سنة أخرى[١] يقضي بين الناس . ويشترى القاضي منصبه بالمارسة من الحكومة التي لا تقيم أي اعتبار لمواهبه . غير أنه يجب أن يكون ذا علم ولو قليلاً ، وأن يكون عثمانياً حنفي المذهب . وقلما يجيد القضاة اللغة العربية لأن معرفتها لا تلزمهم . ولا يكاد القاضي في القاهرة يعمل شيئاً غير التصديق على حكم (نائبه) الذي ينظر في أغلب الدعاوى العادية والذي يختاره القاضي من علماء استنبول ، أو التصديق على قرار (المفتي) الحنفي الذي يقيم دائماً في القاهرة ويصدر فتواه في القضايا الصعبة ، ولكن النائب على الأكثر قليل المعرفة باللغة المصرية العامية

(١) جرت العادة أن يقدم القاهرة في أول رمضان ولكن حدد فيما بعد أول محرم

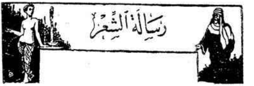
ولذلك يجب على القاضي في القاهرة ، حيث يتكلم أغلب المتقاضين العربية ، أن يضع غاية ثقته في « الباش ترجمان » ؛ ومنصب هذا دائم ، ومن ثم فهو يعرف أنظمة المحكمة ، وخاصة نظام الرشوة ، وهو على أتم استعداد لأن يلقن هذا النظام لكل من يستجد من القضاة والنواب . وقد يكون القاضي جاهلاً بالشرع جهلاً غليظاً في كثير من تفاصيله ، وقد حدثت عدة أمثلة من هذا النوع ، ولكن يجب أن يكون النائب بارعاً في الشرع علماً وعملاً

وعند ما يرفع الشخص قضية يذهب إلى المحكمة ويطلب من الباش رسول أن يرسل (رسولاً) ليحضر الخصم ، ويتناول الرسول قرشاً أو قرشين[1] يقسمهما مناصفة بينه وبين رئيسه على انفراد . ويحضر المدعي والمدعى عليه في بهو المحكمة الكبير : وهو غرفة كبيرة تواجه فناء فسيحاً ، ولها واجهة مكشوفة بها صف من الأعمدة والعقود ، ويجلس فيها كتبة يسمى الواحد منهم « شاهداً » ، وعمله أن يصغي إلى أقوال الطرفين في القضية ويدونها ، ورئيسهم الباش كاتب ، ثم يقصد المدعي أي واحد من هؤلاء الكتبة ويقرر أمامه ظروف القضية ... فيثبتها الشاهد كتابة ، ويتناول جعلاً قدره قرش أو أكثر ، ثم بعد ذلك يصدر حكمه إذا كانت القضية لا قيمة لها والمدعى عليه يعترف بعدالتها ، وإلا قدم الطرفين إلى النائب في غرفة داخلية . وبعد أن يسمع النائب القضية يأمر المدعي أن يستصدر فتوى من مفتي الحنفية الذي يتناول جعلاً يندر أن يقل عن عشرة قروش ، ويزيد غالباً على مائة قرش أو مائتين ، ويصدر النائب حكمه في القضايا التافهة منفرداً وبأقل تعب . أما القضايا المهمة أو المعقدة فإنها تنظر في غرفة القاضي الخاصة أمام القاضي نفسه والنائب ومفتي الحنفية الذي يستدعى للفصل فيها بفتوى ؛ وقد تزيد القضية صعوبة أو أهمية ، فيستدعي بعض علماء القاهرة ؛ وبعد أن يصغي المفتي إلى القضية يصدر حكمه كتابة ، فيصدق القاضي عليه ويختم الورقة بختمه ، وهذا كل ما عليه أن يعمله في أي قضية . ويستطيع المتهم أن يبرئ نفسه باليمين إذا لم يقدم المدعي شهوداً ، فيضع يده اليمنى على القرآن ويقول : بالله العظيم ثلاث مرات ، مردداً : وبما يحتويه هذا من كلام الله . ويجب أن يكون الشاهد عدلاً أو يزعم أنه كذلك ، وألا تكون له مصلحة في القضية . ويلزم لكل دعوى شاهدان[1] على الأقل أو رجل وامرأتان ، ويجب أن يزكي الشاهدين شخصان آخران . وشهادة الكافر على المسلم لا تجوز شرعاً في حالة العقوبة الشديدة . والشهادة لصالح الابن أو الحفيد أو الأب أو الجد لا تقبل وكذلك شهادة الأرقاء ، ولا يستطيع السيد أن يشهد لصالح عبده .

(يتبع) عدلي طاهر نور

(١) وكان القرش المصري عند ما كتب هذا يساوي خمس الشلن أو بنسين وخمسي بنس ٢ ٢/٥

(١) هذا الحكم أخذ من الأسفار الموسوعة الخمسة . أنظر التثنية الإصحاح ١٩ الآية ١٥ ونصها : لا يقوم شاهد واحد على إنسان في ذنب ما أو خطية ما من جميع الخطايا التي يخطئ بها على فم شاهدين أو على فم ثلاث شهود يقوم الأمر . ويستطيع الرجل أن يمتنع عن الشهادة



إلى ... ؟!

« للشـــاعر المجهول »

تحدثتَ بالهتّاف(١) أنك حاضرٌ   لإيناسِ رُوحي بعد بِضْع دقائقِ
فكيف ترى عيشى يطولُ فأجتني   على شفَقى أرواح تلك الشقائقِ
ألوفٌ من الأحلام طافتْ فداعبتْ
فؤادَ أسيرٍ ظامئ الروحِ وامقِ
فما صحّ حُـــلْمٌ فى هواك ولا انتهتْ
على اليأس مَوْجاتُ الدموع الدوافقِ
أأنت برغم الصدّ والدّلّ قادمٌ   لإسعادِ مشتاقٍ وإنجادِ عاشقِ ؟
أمثلك تسديه الحيـــاةُ إلى فتى
مَريد الهوى والشوقِ وَغْرِ الخلائقِ ؟
وكيف أرى دارى على ضِيق ساحها
تحيط بديَّان الشموس الشوارقِ ؟
سألقاك ـ هل ألقاك ؟ ـ فى ثوب ضيْغَمٍ
يرى الرفق بالغزلان إحدى البوائقِ
تعالَ تجدْنى جذوةً من صبابةٍ   تسعَّرُ فى صدرِ مَشوقٍ وشائقِ
لِنجواك أستبقى شبابى فعاطنى
كؤوس الهوى قبل ابيضاضِ المفارقِ
وأعْززْ فؤاداً لو أردتَ جملتَهُ
أعزَّ من الشَّغْواء(٢) فى رأس شاهقِ

(١) الهتاف : هو التليفون
(٢) الشغواء : العقاب بضم العين

لقد مالت الدنيا وجافتْ وجانَبَتْ   فكنْ مُنقِذِي من جورها المتلاحقِ
إذا كنتَ لى يوماً ولو بعضَ ساعةٍ   تجودُ بها جُود الحبيب الموافقِ
فسوف أرى الدنيا على سوء بغيها   أطايبَ من لَهْوِ الشباب الغُرانِقِ

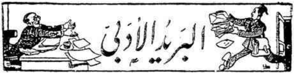
* * *

دقائقُ كالأعوام طالتْ ولم تجِئ   حماكَ إلهُ الحبِّ من كُلِّ عائقِ
سيقتُلنى شوقى إليك فهل أرى   خيالك عند الموت وهو مُعانقى
أُحبُّك حُبَّ القلبِ للوحْىِ فالْقَنى   ولو لحظةً يَنْفُذْ إلى الغيب بارقى
شَبَبْتَ بقلبى ثورةً لم تُنامِها   جوانحُ مَشغوفٍ ولا صدرُ حانقِ
وصيَّرْتَنى لا صرتَ مِثْلِيَ عِبرةً   لِسكُلِّ ألوفِ الروح جمِّ العلائقِ
فحتّى متى أحنو عليك ولم أكنْ   بحفظك الميثاق يوماً بوائقِ
أُحبُّك حُبَّ العين للنور فاهدنى
إلى الصبر عن لُقياك إن كنتَ صادقى
وهل أبصر الراءون من عُصبة الهوى
نظيرَكَ فى أوهامهم والحقائقِ ؟
لكَ المجدُ بينَ الخافقين فوقّنى   قضاءَ الأسى بين القلوب الصوادقِ
أُحبُّك حُبًّا لو تمثّلتَ وَقْدَهُ
لأمسيتَ فى كربٍ من الحزن ساحقِ

* * *

إلى الله أشكو ما أعانيه من جوًى
هو الدهرُ يَرمى بالصروف الصواعقِ
إلى خالق الأرواح أشكو بَليّتى   برُوحٍ غَدورٍ فى الغرام ومازقِ
تؤرّقنى أطيافُ ذكراهُ سُحْرَةً
بِرَوْعٍ كأهوال الخطوب الطوارقِ
فما الذنبُ؟ ماذنبى وما كنتُ فى الهوى
سوى شاعرٍ للصدق فى الحبِّ خالقِ
ستطوى أحابيلُ المِلاحِ وتنطفى   على الدهر نيرانُ الشجون المواحقِ
ويبقى نشيدى فى هواكَ وثيقةً   تُسجّلُ أحلامَ القلوب الخوافقِ

« الشاعر المجهول »



المحتسب في الإسلام

نشرت مجلة الجمعية الصحية المصرية في عدد من أعدادها الأخيرة مقالاً قيماً للدكتور فريد بك حلمي المفتش بوزارة الصحة عن نظام التفتيش على المأكولات والاشتراطات الصحية في العهد الفاطمي معتمداً في بحثه على كتاب « معالم القربة في أحكام الحسبة » لمؤلفه محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخن ، أثبت فيه أن المحتسب كان يقوم في هذا العهد بوظيفة مفتش مأكولات ومعاون صحة ومفتش موازين ومفتش بيطري ، وبالجملة يعتبر من رجال الضبطية القضائية ؛ وكانت الاشتراطات التي يفرضها المحتسب على المحلات لا تقل دقة عن اشتراطات وزارة الصحة اليوم إن لم تفقها ، وللتدليل على ذلك نذكر بعض ما يخص الجزارين قال :

« لا يجر الجزار شاة برجلها جراً عنيفاً ، ولا يذبح بسكين كالة لأن في ذلك تعذيب الحيوان ، ولا يشرع في السلخ بعد الذبح حتى تبرد الشاة وتخرج منها الروح . وينهى الأبخر عن النفخ في الشاة عند السلخ لأن نكهته تغير اللحم وتزفره ، ويمنع المحتسب القصابون من الذبح على أبواب دكاكينهم فإنهم يلوثون الطريق بالدم والروث ، وهذا منكر يجب المنع منه ، وأن يفردوا لحوم المعز عن لحوم الضأن ، وينقطوا لحم المعز بالزعفران ليتميز عن غيره وتكون أذناب المعز معلقة على لحومها إلى آخر البيع ولا يخلط لحم الذكر بالأنثى » .

هذا جزء بسيط مما كان يقوم به المحتسب ، ومثل ذلك كان يفرض على كافة الحرف والصناعات .

وكان المحتسب يدخل في صميم الصناعة بشكل يعجب به ابن القرن العشرين لمعرفته بطرق الغش التي تخفى على الكثيرين ، والتي لا تمسها شروط وزارة الصحة إلا عن بعد . ومن شروط الحسبة والمحتسب أن يكون مواظباً على سنن رسول الله (صلعم) ، وأن يكون عفيفاً عن أموال الناس ، ووظيفته أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وأن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته الخ .

« كوم حماده » كامل يوسف

أصل كلمة النفط

أرى أن كلمة النفط عبرية الأصل ، وتنطق في العبرية نُفِتٌ وقد وردت في التوراة في مواضع مختلفة بمعنى التقطير أو القطر أو القطرات ، وهو المعنى الأصلي الذي أخذ منه اسم زيت البترول (نفت) لعلاقة التقطير أو القطر في كلٍّ .

ففي الآية الثالثة من الإصحاح الخامس من كتاب الأمثال « لأن شفتي المرأة الأجنبية تقطران عسلاً (نفت) وفمها أنعم من الزيت » . وفي الآية الثالثة عشرة من الإصحاح الرابع والعشرين من الكتاب نفسه « يا بني كل عسلاً لأنه جيد وقطره (نفت) حلو في فمك » .

وفي الآية الثالثة عشرة من المزمور التاسع عشر نجد « وأحلى من العسل وقطر (نفت) الشهد » .

والأمثال والمزامير من أقدم كتب التوراة . ولا أذكر أنني عثرت في الأدب الجاهلي أو الإسلامي على كلمة نفط أو نفت فمن المرجح إذاً أن تكون الكلمة عبرية الأصل دخلت العربية بعد الفتح الإسلامي . هذا إلى أن كلمة (نفت) أو نفط مستعملة في الفارسية الحديثة والقديمة . وأذكر أنني قرأتها في الشاهنامة الفارسية ، وإن كنت لا أستطيع الآن وهنا أن أنص على موضعها لعدم المرجع

(بخت الرضا . سودان) عبد العزيز عبد المجيد

في نقد الأصول

ذكرني الدكتور حسن عثمان في بحثه — نقد الأصول — الذي هو فصل من بحوثه القيمات التي ينشرها في « الرسالة الزهراء » تحت عنوان (كيف يكتب التاريخ) ذكرني ذلك بما كنت قرأته في ترجمة الخطيب البغدادي المؤرخ المعظم ، فإنه لما رجع من مكة إلى بغداد تقرب من رئيس الرؤساء أبي القاسم بن مسلمة وزير القائم بأمر الله ، وكان قد أظهر بعض اليهود كتاباً

وادعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادات الصحابة وأنه خط على رضى الله عنه ؛ فعرضه رئيس الرؤساء على أبي بكر الخطيب فقال : هذا مزور ، فقيل له من أين لك ذلك ؟ قال فى الكتاب شهادة معاوية ابن أبى سفيان ومعاوية أسلم يوم الفتح وخيبر كانت فى سنة سبع ؛ وفيه شهادة سعد بن معاذ وكان قد مات يوم الخندق فى سنة خمس . فاستحسن ذلك منه

محمد أبو البهاء

فى الخوارج

كتب الأستاذان الصعيدى والأفغانى (فى الأعداد ٤٢٢ ، ٢٣ ، ٣١) فى تحقيق نسبة كلمة فى الخوارج إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى سيدنا على بن أبى طالب . وسأل الأستاذ الصعيدى عن المصدر الذى نسب هـذا القول إلى على ، وأجاب الأستاذ الأفغانى بأنه (العقد الفريد)

وإليك رواية تؤيد أن الخبر من كلام سيدنا على وردت فى قديم المصادر ووثيقها . قال الهيثم بن عدى حدثنا إسماعيل بن خالد عن علقمة بن عامر قال : سئل على عن أهل النهروان أمشركون هم ؟ فقال من الشرك فروا ، قيل أمنافقون ؟ قال إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، فقيل فما هم يا أمير المؤمنين ؟ قال إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا . فهذا ما أورده ابن جرير الطبرى وغيره فى هذا المقام . أنظر (البداية والنهاية لابن كثير) ج ٧ ص ٢٨٩ و (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى) ج ٦ باب فى الخوارج ، باب فى أهل النهروان

أحمد صفوان

حق الضيافة

طلع علينا العدد (٤٣٠) من « الرسالة » وهو يحمل مقالاً قيماً للأستاذ — على الطنطاوى — عن « حق الضيافة » وقد رأيت هذا المقال الممتع ثورة على أخلاقنا ونقداً لتقاليدنا وصورة من صميم الحياة المصرية فكشف الستار عن داء عضال فى المجتمع يجب استئصاله ؛ وهذا لا يتنافى مع الشهامة والكرامة ، فقد اتخذت الضيافة فى هذه الأيام وسيلة المضايقة ومجالاً للتسلية والمسامرة وضياعاً للمصالح . وما أحوج مصر الحديثة التى أصبحت فى احتياج إلى اتجاهات جديدة أن تجد من حملة أقلامها وقادة الرأى فيها مثل هذه الشجاعة فيثورون على هذه التقاليد التى تضر ولا تنفع . فإلى الأمام يا أستاذ — الطنطاوى — وأكثر من هذه الأبحاث ففيها ترقية للذوق الشرقى وتهذيب الأخلاق وسعادة المجتمع والله موفقك ومبارك غايتك

محمد أحمد شمر

عبر كذا ...

رداً على الأستاذ الكبير « ا . ع » أقول :

كنت احتججت ببيت سواد بن قارب

فشمَّرت عن ذيلى الإزار وأرقلت
بى الدعلب الوجناء عبر السباسب (١)

وقلت فى الحاشية : « ولعل من الإنصاف أن أقول : يمكن تخريج الشاهد على غير ما استشهدت له بجعل عبر صفة للناقة الخ » ومن ثم يرى القارئ أنى لم أوجب أحد الرأيين ، وأنى أجزتهما ولكنى — فى هذا الشاهد — رجحت العبر بمعنى العبور ، على أن يكون مصدراً مراداً به اسم الفاعل

ولكن الأستاذ « ا . ع » يحتم فى رده أن تكون صفة ثالثة للناقة لا غير . ويرى أن الشاعر فى مقام تمديد محاسن ناقته وما فيها من مزايا ، فهو يصفها بالفتاء والقوة ، وبأنها قادرة على شق السباسب الخ ...

ورداً على ذلك أقول : لا يتعين فى هذا الشاهد قصر المقام على تمديد محاسن الناقة ، فإن فى قوله « الدعلب » أوهى الناقة السريعة ، و « الوجناء » وهى القوية الشديدة ، كما فى اللسان ما يغنى عن الوصف بأنها « عبر سباسب » ، وهو معنى لا يغاير سابقيه كثيراً

ويؤيدنى فيما أذهب إليه ورود البيت فى بعض الروايات على معنى الظرفية لا الوصفية . ففى السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٦٧ :

فشمرت من ذيل الإزار ووسَّطت
بى الدعلب الوجناء بين السباسب

وكذلك الرواية فى (سفينة الراغب ص ٦٣٨) نقلاً عن (أنوار الربيع فى أنواع البديع)

(١) وثم تخريج ثالث فى البيت لا أرى ما يمنعه ، بجعل العبر بمعنى الجانب أو الناحية كما فى القاموس واللسان ، وتكون مفعولا لأرقلت بمعنى قطعت ، قال فى اللسان : « وأرقل المفازة قطعها »

وليس معنى هذا أننى أؤيد استعمالها ظرفاً ، ولكنى لا أزال أرى أنها مصدر وقع موقع اسم الفاعل . فقد خرج من حسابنا ما ساقه الأستاذ من الأدلة على أنها ليست ظرفاً ، فهو رأى لم أقل به .

وترجع إلى التخريج الذى رأيته ، وجهد الأستاذ أن يفنده ، فقال : إن المصدر لا يقع حالاً إلا إذا كان نكرة ، و « عبر السباسب » معرفة بالإضافة ، وأبطل بهذا – فى زعمه – تخريجى .

وأقول : إن الأستاذ لم يتبين رأيى على وجهه الصحيح ، إذ توهم أنى أرى « عبرا » مصدراً أريد به الحال ، ولم أقل هذا ، وإنما قلت : إنه مصدر وضع موضع اسم الفاعل ، فهو عبر بمعنى عابر ، كما فى قوله تعالى : (إن أصبح ماؤكم غورا) ، أى غائراً ؛ ورجل عدل ، أى عادل ...

وسواء وقوع هذا المصدر بعد ذلك حالاً أو خبراً أو فاعلاً الخ فذلك راجع إلى السياق ... فقد أصبحت القضية الآن : هل يشترط تنكير المصدر إذا وقع موقع اسم الفاعل ، بصرف النظر عن كونه حالاً أو غير حال ؟

لم يقل أحد هذا ، فأنت تقول : « قاضيكم العدل » ، أى العادل ، و « أنصفنى عدلكم » ، أى عادلكم . فأنت ترى أنى لم أنص على أن كلمة « عبر حال » – حتى يشترط تنكيرها – وإنما نصصت على أنها مصدر بمعنى فاعل ، وكونها « حالا » أمر اقتضاه سياق الكلام فى الجمل التى ساقها الأستاذ وساعد عليه أن المصدر سيفقد تعريفه بعد التقدير ، وسيصير المضاف إليه مفعولاً ، وذلك فى قولك : « عابرةً الأطلنطى » ؛ فليس ثَمّ ما يمنع من أن يكون المصدر « حالا » بعد أن فقد تعريفه

وبعد ... فإنى أنشد الحقيقة ... وعلى الأستاذ أن يقنعنى – إن استطاع – فأسلم له . ومنى عليه التحية

« بنى سويف » محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة الابتدائية

حول كلمة « عبر »

سيدى الأستاذ الكبير « الزيات »

سلام الله عليك . قرأت بإعجاب كبير ما دبجته براعة الأستاذ الكبير « ا . ع » خاصاً باستعمال كلمة (عبر) ظرفاً وبيان وجه الخطأ فى ذلك . وإنا نوافق الأستاذ الكبير على كل ما أورده فى كلمته القيمة ؛ أما ادعاء الأستاذ محمد محمود رضوان صحة استعمال (عبر) ظرفاً واستشهاده على ذلك بقول سواد بن قارب :

فشمرت عن ذيلى الإزار ، وأرقلت
بىَ الدعلب الوجناء عبر السباسب

فهو ادعاء باطل من وجهين :

الأول : احتمال كون (عبر) صفة للناقة ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال

الثانى : فساد المعنى بجعل (عبرَ) ظرفاً بمعنى بعدَ ؛ لأنه لا معنى لإرقال الناقة بعد قطع السباسب والانتهاء إلى غايتها

وعندى أنه يصح أن تكون (عبر) فى هذا البيت مصدراً مفعولاً لأجله ، ويكون المعنى أن الناقة أرقلت لعبر السباسب أى لعبورها . وهو معنى صحيح مناسب لا غبار عليه

هذا ، وللأستاذ الكبير إعجابى الكبير بأبحاثه اللغوية الممتعة .

والسلام عليكم ورحمة الله إبراهيم محمد نجا

الصباح الأدبى فى دمشق

أصدر فريق من أبناء دمشق الناهضين صحيفة أدبية راقية باسم « الصباح » ولم يشأ القائمون بهذا المشروع أن يكتفوا بالشبان من الأدباء ، بل اتفقوا مع فريق من أكابر الأدباء والأديبات فى البلاد العربية ، كى يغذوا « الصباح » بثمرات أقلامهم الناضجة ، وفى مقدمة هؤلاء الأساتذة :

محمد كرد على ، شفيق جبرى ، خليل مردم بك ، عبد القادر المغربى ، محمد البزم ، ميشيل عفلق ، فؤاد الشائب ، صلاح الدين المحايرى ، زكى المحاسنى ، وداد سكاكينى ، فلك طرزى ، وغيرهم .

ومما لا نرتاب فيه أبداً أن « الصباح » ستكون كما ظهر من عددها الأول مرآة صادقة للأدب الجديد الناهض فى سورية .

ع . ع

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)